الباب الثانى

فى بناء الكعبة المعظمة
زادها الله تعالى شرفًا وتعظيمًا ومهابة وتكريمًا

قال قاضى القضاة السيّد تقى الدين محمّد بن أحمد بن على الحسنى المكىّ الفاسى فى كتابه شفاء الغرام[1]: لا شك أن الكعبة المعظمة بُنيت مرّات، وقد اختلف فى عدد بنائها، ويتحصّل من مجموع ما قيل فى ذلك أنها بُنيت عشر مرّات: وهى بناء الملائكة، وبناء آدم عليه السلام، وبناء أولاده، وبناء الخليل إبراهيم عليه السلام، وبناء العمالقة، وبناء جُرهم، وبناء قُصَىّ بن كلاب جَدِّ النبىّ ﷺ، وبناء قريش قبل بعث النبى ﷺ وعُمره الشريف يومئذ خمس وعشرون سنة، وبناء عبد الله بن الزبير بن العَوَّام الأسدى، وآخرها بناء الحجاج بن يوسف الثَّقفىّ، وفى إطلاق العبارة أن بناء الكعبة تجوّز، فإن بعضها لم يتسوعبها البناء كالبناء الآخر وهو بناء الحجاج فإنه إنما هدم جانب الميزاب فقط وأعلاه وأبقى الجوانب الثلاثة، وفى جهة الباب، وفى وجهة المستجار الذى هو مقابل الباب، وجهة الصَّفا المقابل لجهة الميزاب فإنها باقية على بناء عبد الله بن الزبير ـ رضى الله عنه ـ.

• **فأما بناء الملائكة الكعبة الشريفة وهو أوّل بناها:**

فذكره الإمام أبو الوليد محمّد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الوليد الأزرقى فى تاريخه فقال: حدّثنا على بن مسلم العِجْلى، عن أبيه، حدثنا القاسم بن عبد الرحمن الأنصارى، حدثنا الإمام محمد الباقر بن الإمام علىّ زَيْن العابدين بن الحسين بن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه، قال: كنت مع أبى علىّ بن الحسين عليهما السلام بمكة، فبينما هو يطوف

(١) شفاء الغرام ١/ ١٤٧.

وأنا وراءه إذ جاءه رجل طويل فوضع يده على ظهر أبى فالتفتَ أبى إليه فقال الرجل: السلام عليك يا ابن بنت رسول الله ﷺ إنى أريد أن أسألك، فردّ عليه السلام وسكت أبى وأنا والرجل خلفه حتى فرغ من أُسْبُوعه فدخل الحجرِ فقام تحت الميزاب فقُمْتُ أنا والرجل خلفه فصلّى ركعتَى أسبوعه ثم استوى قاعداً فالتفت إلىَّ، فقمت فجلست إلى جنبه، فقال: يا محمد، فأين هذا السائل؟ فأومأت إلى الرجل فجلس بين يدى أبى فقال له عمَّ تسأل؟ قال: إنى أسألك عن بدء هذا الطواف بهذا البيت؟ فقال له أبى: من أين أنت؟ قال: من أهل الشام. قال: أين مسكنك؟ قال: بيت المقدس. قال: قرأت الكتابَيْن؟ يعنى التوارة والإنجيل؟ قال: نعم، قال له أبى: يا أخا الشام احفظ عنى ولا ترو عنى إلا حقًا، أما بَدْءُ هذا الطواف فإن الله تعالى قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] فقالت الملائكة: أى ربِّ، أتخلق غيرنا ممّن يفسد فيها ويسفك الدماء ويتحاسدون ويتباغضون ويتباغون، اجعلْ ذلك الخليفة منا فنحن لا نفسد فيها ولا نسفك الدماء ولا نتباغض ولا نتحاسد ولا نتباغى ونحن نسبّح بحمدك ونقدسك ونطيعك ولا نعصيك، فقال الله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، قال: فظَنَّت الملائكة أن ما قالوا رَدًا على ربّهم وأنه قد غضب عليهم من قولهم فلاذوا بالعرش ورفعوا رءوسهم يتضرعون ويبكون إشفاقًا من غضبه، فطافوا بالعرش ثلاث ساعات فنظر الله تعالى إليهم فنزلت الرحمة عليهم ووضع الله سبحانه تحت العرش بيتًا وهو البيت المعمور على أربع أساطين من زبرجد يغشاهن ياقوتة حمراء، وقال للملائكة: طوفوا بهذا البيت، فطافت الملائكة بهذا البيت وصار أَهْون عليهم من العرش ثم إن الله تبارك وتعالى بعث ملائكة وقال لهم: ابنوا لى بيتًا فى الأرض بمثاله وقدره وأمر الله تعالى من فى الأرض من خلقه أن يطوفوا بهذا البيت كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور، فقال الرجل صدقت يا ابن بنت رسول الله ﷺ، هكذا كان[1]. انتهى.

(١) الخبر بطوله لدى الأزرقى ١/ ٣٢ ـ ٣٤.

قلتُ: هذا الحديث الشريف يَدُلُّ على أن بناء الملائكة ـ عليهم السلام ـ للكعبة الشريفة كان قبل خلق الأرض، ولنا أحاديث دالَّةٌ على أن الكعبة خُلقت قبل الأرض بأربعين سنة فى رواية، وبألْفَىْ عام فى أُخْرى.

قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العبّاس الفاكهى المكىّ فى أوائل تاريخ مكة: حدثنى عبد الله بن أبى سلمة، قال: حدثنا الواقدى، قال: حدثنا ابن جُرَيْج، عن بشر بن عاصم الثقفى، عن سعيد بن المسيّب، قال: قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: خلق الله تعالى البيت قبل الأرض والسموات بأربعين سنة وكان غُثاء على الماء.

قال الفاكهى: وحدثنى عبد الله بن أبى سلمة، قال: حدثنا النَّضْر بن شُمَيْل، قال: حدثنا أبو مَعْشَر، عن سعيد ونافع مولى آل الزُّبَيْر عن أبى هُرَيرة ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: الكعبة خُلقت قبل الأرض بألفَىْ عام، قيل: وكيف خُلقت قبل الأرض وهى من الأرض، فقال: لأنه كان عليها مَلَكَان يسبّحان بالليل والنهار ألفَىّ سنة فلمّا أراد الله تعالى أن يخلق الأرض دحاها من تحت الكعبة فجعلها فى وسط الأرضين.

قال: وحدثنى عبد الله بن أبى سلمة، قال: حدثنا الواقدى، قال: حدثنا إسحاق بن يحيى بن طلحة أنه سمع مجاهداً يقول: إن قواعد البيت خُلقت قبل الأرض بألفى سنة ثم بسطت الأرض من تحته.

أقول: وظهر ممّا رَوَيْناه أن موضع البيت الشريف قبل خلق الأرض لا نَفْس بناء البيت فإنه أوّل ما بَنَتْه الملائكة بأمر الله تعالى كما سُقْناه والله تعالى أعلم.

● **الثانى: بناء آدم ـ عليه السلام ـ:**

وقد ذكره الإمام أبو الوليد الأزرقى، فقال: حدثنى جدّى عن سعيد بن سالم عن طلحة بن عمرو الحضرمى، عن عطاء بن أبى رَبَاح بفتح الراء والموحدة بعدها ألف ثم حاء مهملة ـ عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ قال: لمّا أهبط اللهُ آدم إلى الأرض من الجنة قال: يا رب مالى لا أسمع أصوات

الملائكة؟ قال: بخطيئتك يا آدم ولكن اذهبْ فابن لى بيتًا فطُفْ به واذكرنى حوله كما رأيت الملائكة تصنع حول عرشى، قال: فأقبل آدم يتخطى الأرض فطُوِيتْ له ولم يقع قدمه فى شىء من الأرض إلا صار عمرانًا وبركة حتى انتهى إلى مكة فبَنَى البيت الحرام وأن جبريل ـ عليه السلام ـ ضرب بجناحيه الأرض فكشف عن أس ثابت على الأرض السُّفْلَى فقذفت فيه الملائكة من الصخر ما لا يطيق الصخرة منها ثلاثون رجلاً، وأنه بناه من خمسة أَجْبُل من لُبْنان وطُور زَيْتا وطُور سِينا والجُودى وحِرَا حتى استوى على وجه الأرض[1].

وهذا يدلُّ على أن آدم ـ عليه السلام ـ إنّما بنى أساس الكعبة حتى سَاوَى وجه الأرض، ولعلّ ذلك بعد دُثور ما بَنَتْهُ الملائكة بأمر الله أولاً، ثم أنزل الله تعالى البيت المعمور لآدم ـ عليه السلام ـ ليستأنس به فوضعه على أساس الكعبة.

ويدلُّ على ذلك ما رَوَاه أبو الوليد الأزرقى ـ رحمه الله تعالى ـ فى تاريخه، قال: حدّثنى أبى، عن جدّى، قال: حدثنا سعيد بن سالم، عن عثمان بن ساج، قال: بلغنى أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال لكعب: يا كعب، أخبرنى عن البيت الحرام، قال كعب: أنزل الله من السماء ياقوتة مجوّفة مع آدم فقال له: يا آدم، إن هذا بيتى أنزلته معك يطاف حوله كما يطاف حول عرشى ويُصَلَّى حوله كما يُصلَّى حول عرشى، ونزلتْ معه الملائكة فرفعوا قواعده من حجارة، ثم وضع البيت عليه فكان آدم ـ عليه السلام ـ يَطُوف حوله كما يُطاف حول العرش ويُصَلِّى عنده كما يُصَلَّى عند العرش، فلمّا أغرق الله قوم نوح رفعه إلى السماء وبقيت قواعده[2].

وقال الأزرقى أيضًا: حدثنى أبى، قال: حدثنى محمد بن يحيى عن عبد العزيز بن عمران، عن عمر بن أبى معروف، عن عبد الله بن أبى زياد،

(١) الخبر بطوله لدى الأزرقى ١/ ٣٦ وما بعدها.
(٢) الأزرقى ١/ ٤٠.

أنَّه قال: لما أهبط الله آدم ـ عليه السلام ـ من الجنة قال: يا آدم ابن لى بيتًا بحذاء بيتى الذى فى السماء تتعبّد فيه أنت وولدك كما تتعبّد ملائكتى حول عرشى، فهبطت عليه الملائكة فحفر حتى بلغ الأرض السابعة فقذفت فيه الملائكة الصخر حتى أشرف على وجه الأرض، وهبط آدم بياقوتة حمراء مجوّفة لها أربعة أركان بيض، فوضعها على الأساس، فلم تزل الياقوتة كذلك حتى كان زمن الغرق، فرفعها الله تعالى[1].

وقال الأزرقى أيضًا: حدثنى محمّد بن يحيى، عن إبراهيم بن محمد بن أبى يحيى، عن أبى المليح أنه قال: كان أبو هريرة يقول: حجّ آدم فقضى المناسك، فلمّا حج قال: يا رب إن لكلِّ عاملٍ أجرًا، قال الله تعالى: أما أنت يا آدم فقد غفرتُ لك وأمّا ذريّتك فمن جاء منهم هذا البيت فباء بذنبه غفرتُ له، فاستقبلته الملائكة بالردم، فقالوا: بُرّ حجك يا آدم، قد حججنا هذا البيت قبلك بألفَىْ عامٍ قال: وما كنتم تقولون حوله؟ قالوا: كنا نقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، قال: فكان آدم ـ عليه السلام ـ إذا طاف يقول هذه الكلمات، وكان طَوافُ آدم سبعة أسابيع بالليل، وخمسة بالنهار. قال نافع: وكان ابن عمر ـ رضى الله عنه ـ يفعل ذلك[2].

وقال الأزرقى أيضًا: حدثنى محمد بن يحيى عن ابن عمر قال: حدثنا هشام بن عبد الرحمن بن سليمان المخزومى عن عبد الله بن أبى سليمان مولى بنى مخزوم أنه قال: طاف آدم ـ عليه السلام ـ سبعًا بالبيت، ثم صلّى تجاه باب الكعبة ركعتَيْن، ثم أتى المُلْتَزم فقال: اللهم إنك تعلم سريرتى وعلانيتى فاقبل مَعْذرتى، وتعلم ما فى نفسى وما عندى فاغفرْ لى ذنوبى، وتعلم حاجتى فأعطنى سؤلى، اللهم إنى أسألك إيمانًا يباشر قلبى ويقينًا صادقًا حتى أعلم أنه لا يُصيبنى إلا ما كتبت لى والرضا بما قضيتَ علىَّ،

(١) الأزرقى ١/ ٤٢ ـ ٤٣.
(٢) الأزرقى ١/ ٤٣ ـ ٤٤.

قال: فأَوْحَى الله تعالى إليه، يا آدم قد دَعَوْتَنى بدعوات فاستجبت لك، ولن يدعونى بها أحدٌ من ولدك إلا كشفت همومه وغمومه ونزعتُ الفقر من قلبه، وجعلتُ الغناء بين عَيْنَيْه، واتَّجَرْتُ له من وراء كلِّ تاجر، وأتتْهُ الدُّنْيَا وهى راغمة وإن كان لا يريدها، قال: فمنذ طاف آدم كانت سُنَّة الطَّوَاف[1].

• **الثالث: بناء أولاد آدم ـ عليه السلام ـ للكعبة المعظمة:**

روى الأزرقى بسنده إلى وهب بن مُنَبِّه قال: لما رُفعت الخَيْمة التى عزّى الله بها آدم من حلية الجنة حين وضعت له بمكة فى موضع البيت ومات آدم فبَنَى بنو آدم من بعده مكانها بيتًا بالطين والحجارة، فلم يزل معمورًا يعمّرونه هم ومن بعدهم حتى كان زمن نوح ـ عليه السلام ـ فنسفه الغرق وغيّر مكانه حتى بُوِّئ لإبراهيم ـ عليه السلام ـ. انتهى[2].

قال الحافظ أبو القاسم السُّهَيْلى فى الفَصْل الذى عقده لبُنْيان الكعبة: وكان بناؤها الأول حين بنى شيث بن آدم ـ عليه السلام ـ[3]. انتهى.

ولعلّ مُراد السُّهَيْلى بالأوّليّة بالنسبة إلى بناء البشر لا الملائكة، وأن بناء آدم عليه السلام إنما هو الأساس إلى أن سَاوَى وجه الأرض وأنزل الله عليه من الجنّة البيت المعمور فوضعه على ذلك الأساس، والمراد بالخيمة المشار إليها فى خبر وهب بن منبّه ـ رضى الله عنه ـ هو البيت المعمور، أو لعلّها خيمة غير البيت المرفوع لعلّها رُفعت بعد وفاة آدم ـ عليه السلام، وأبقى البيت المعمور إلى أن رُفع زمن الطوفان، وفى ذلك من ارتكاب المجاز ما تصحّح به هذه الروايات المتباينة ظواهرها والله تعالى أعلم بالصواب.

• **الرابع: بناء الخليل إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ:**

قال السيّد الإمام التقى الفاسى ـ رحمه الله تعالى ـ: أما بناء الخليل ـ عليه السلام ـ فهو ثابت بالكتاب والسُّنَّة الشريفة، وهو أول من بنى البيت

(١) الأزرقى ١/ ٤٤.
(٢) الأزرقى ١/ ٥١.
(٣) الروض الأنف ١/ ٣٣٦.

على ما ذكره الفاكهى عن علىّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وجزم [به][1] الشيخ عماد الدين ابن كثير فى تفسيره، وقال: لم يرد خبر عن معصوم أن البيت كان مبينًا قبل الخليل ـ عليه السلام ـ[2]. انتهى.

فهو يُنكر ما قدّمناه من الآثار، وأما على ما قدّمناه من الآثار فبناء إبراهيم ﷺ أوّل مبنى بالنسبة إلى من بناه بعده لا أول حقيقى، والله تعالى أعلم.

وروى الأزرقى ـ رحمه الله ـ فى تاريخه عن ابن إسحاق أن الخليل ـ عليه السلام ـ لمّا بنى البيت جعل طوله فى السماء تسعة أذرع، وجعل طوله فى الأرض من قبل وجه البيت الشريف من الحجر الأسود إلى الركن الشامى اثنين وثلاثين ذراعًا، وجعل عرضه فى الأرض من قبل الميزاب من الركن الشامى إلى الركن الغربى الذى يسمى الآن الركن العراقى اثنين وعشرين ذراعًا، وجعل طوله فى الأرض من جانب ظهر البيت الشريف من الركن الغربى المذكور إلى الركن اليمانى أحد وثلاثين ذراعًا، وجعل عرضه فى الأرض من الركن اليمانى إلى الحجر الأسود عشرين ذراعًا، وجعل الباب لاصقًا بالأرض غير مرتفع عنها ولا مُبوَّب، حتى جعل لها تُبَّع الحِمْيَرِىُّ بابًا وغلقًا بعد ذلك، وحفر إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى بطن البيت على يمين مَنْ دخله حفرة لتكون خزانة للبيت يوضع فيها ما يُهْدَى إلى البيت، فكان إبراهيم ـ عليه السلام ـ يبنى وإسماعيل ـ عليه السلام ـ ينقل له الأحجار على عاتقه، فلمّا ارتفع البنيان قرب له المقام فكان يقوم عليه ويبنى ويحوّله له إسماعيل ـ عليه السلام ـ فى نواحى البيت حتى انتهى إلى موضع الحجر الأسود، فقال إبراهيم لإسماعيل ـ عليه السلام ـ: يا إسماعيلُ ائتنى بحجر أضَعُه هنا يكون علمًا للناس يبتدئون منه الطواف[3].

فذهب إسماعيل فى طلبه فجاء جبريل عليه السلام إلى سيّدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالحجر الأسود، وكان الله ـ عَزَّ وَجلَّ ـ قد استودعه جبل أبى

(١) من شفاء الغرام.

(٢) شفاء الغرام ١/ ١٥٠.

(٣) الأزرقى ١/ ٦٤.

قُبَيْس حين طوفان نوح ـ عليه السلام ـ، فوضعه جبريل فى مكانه وبنى عليه إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو حينئذٍ يتلألأ نورًا فأضاء بنُوره شرقًا وغربًا وشامًا ويمنًا إلى منتهى أنصاب الحرم فى كل ناحية[١]، وإنّما سَوَّدَتْه أنجاسُ الجاهلية وأرجاسُها. قال: ولم يكن إبراهيم ـ عليه السلام ـ سقَف البيت ولا بناه بمَدَر، وإنما رَصَّه رَصًّا. قال: وذكر سنده إلى عبد الله بن عمر: إن جبريل عليه السلام نزل بالحجر على إبراهيم ـ عليه السلام ـ من الجنّة، وأنه وضعه حيث رأيتم وإنكم لا تزالون بخير ما دام بين ظهرانيكم فتمسكوا به ما استطعتم فإنه يُوشك أن يجىء جبريل ـ عليه السلام ـ فيرجع به من حيث جاء به[٢]. انتهى.

قال السيّد الإمام تقى الدين الفاسى ـ رحمه الله ـ: رَوَيْنا عن قتادة، قال: ذكر لنا أن الخليل عليه السلام بنى البيت من خمسة أَجْبُل: من طُور سينا، وطُور زَيتا، ولُبْنان، والجُودِىّ وحرا، قال: وذكر لنا أن قواعده من حرا، قال: ويُرْوَى أن الخليل عليه السلام أسس البيت من ستة أَجْبُل من أبى قُبَيْس ومن الطُّور ومن القُدْس ومن وَرِقَانَ ومن رَضْوَى ومن أُحُد[٣].

وقال الأزرقى ـ رحمه الله ـ قال أبى: وحدثنى جدى عن سعيد بن سالم، عن ابن جُرَيْج، عن مجاهد أنه قال: كان موضع الكعبة قد خَفِىَ ودرس زمن الطوفان فيما بين نوح وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ قال: وكان موضعه أكمة حمراء لا تعلوها السيولُ غير أن الناس كانوا يعلمون أن موضع البيت فيما هنالك من غير تَعْيين محلّه وكان يَأتيه المظلوم والمتعوّذ من أقطار الأرض، ويدعو عنده المكروب وما دعا عنده أحدٌ إلا استجيب له، وكان الناس يحجّون إلى موضع البيت حتى بَوَّأ الله مكانه لإبراهيم ـ عليه السلام ـ لمّا أراد عمارة بيته وإظهار دينه وشرائعه، فلم يزل منذ أهبط الله آدم إلى

(١) الأزرقى ١/ ٦٥.
(٢) الأزرقى ١/ ٦٣.
(٣) شفاء الغرام ١/ ١٥١.

الأرض معظّمًا محترمًا عند الأمم والملل[١].

قال الإمام أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى فى كتاب العرائس من قصص الأنبياء ـ عليهم السلام ـ: لمّا نجى الله خليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ من نار النمرود، وآمن به مَنْ آمن، خرج مهاجرًا إلى ربه وتزوّج ابنة عمّه سارة وخرج بها يلتمس الفرار بدينه والأمان على نفسه ومن معه، فقدم إلى مصر وبها فرعون من الفراعنة الأولى، وكانت سارة من أحسن النساء، وكانت لا تعصى إبراهيم وبذلك أكرمها الله تعالى، فأتى إبليس إلى فرعون وقال له: إن هاهنا رَجُلاً معه امرأة من أحسن النساء، فأرسل الجبار إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقال له: ما هذه المرأة منك؟ فقال: هى أختى، وخاف إن قال هى امرأتى أن يقتله، فقال له: زينْها وأرسلْها إلى، فرجع إبراهيم إلى سارة فقال لها: إن هذا الجبار قد سألنى عنك فأخبرته أنك أختى فلا تكذّبينى عنده، فإنك أختى فى كتاب الله تعالى، فإنه ليس مُسْلم فى هذه الأرض غيرى وغيرك[٢].

ثم أقبلتْ سارة إلى الجبّار وقام إبراهيم يُصَلّى وقد رفع الله الحجَابَ بين إبراهيم وسارة ينظر إليها منذ فارقته إلى أن عادت إليه إكرامًا له وتطييبًا لقلب إبراهيم ـ عليه السلام ـ، فلمّا دخلت سارة إلى الجبّار ورآها دَهِشَ فى حسنها وجمالها ولم يملك نفسه أن مدّ يده إليها فيبسَتْ يَدُهُ على صدره، فلمّا رأى ذلك أعظم أمرها وقال لها: سَلِى ربَّك أن يطلق يدى علىَّ فوالله إنى لا أُؤذيك، فقالت سارة: اللهم إن كان صادقًا فأطلق له يده، فأطلق الله له يده فوَهَبَ لها هَاجَر، وهى جارية قبطيّة جميلة وردّها إلى إبراهيم، فأقبلتْ إليه، فلمّا أحسّ بها انفتل من صلاته، وقال: مَهْيَم؟ قالت: كفى الله كَيْد الفاجر، ووهبنى هاجر وقد وهبْتُها لك، فلعل الله تعالى يرزقك منها ولدًا وكانت سارة قد مُنعت الولد حتى أَيَسَتْ فوقع إبراهيم على هاجر فحملت وولدت

(١) الأزرقى ١/ ٥٢.

(٢) قصص الأنبياء ص٧٩.

له إسماعيل[١].

وأقام إبراهيم بناحية من أرض فلسطين بين الرملة وإيلياء وهو يضيف من يأتيه وقد أوسع الله عليه وبسط له فى الرزق والمال والخدم[٢].

فلمَّا أراد الله تعالى هلاك قوم لوط بعث الله تعالى رُسُلَه يأمرونه بالخروج من بين ظهرانيّهم، وأمرهم أن يبدءوا فيبشّرون إبراهيم وسارة بإسحاق ومن رواء إسحاق يعقوب، فلمّا نزلوا عليهم سُرَّ بهم، وقال: لا يخدم هؤلاء القوم إلا أنا، فخرج فجاء بعجْلٍ سَمين شَوَاه بالحجارة وقرّبه إليهم فأمسكوا أيديهم فنكرهم وأَوْجَسَ منهم خيفةً حيث لم يأكلوا من طعامه ثم قالوا لا تخفْ إنّا أُرسلنا إلى قوم لوط وامرأته سارة قائمة تخدمهم، فبشّروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، فضحكتْ سارة[٣].

قال ابن عباس: ضحكت تعجبًا من أن يكون لها ولد على كبر سنِّها، وكانت بلغت تسعين سنة، وبلغ إبراهيم مائة وعشرين سنة[٤].

وقال مجاهد وعكرمة: ضحكتْ، أى حاضَتْ فِى[٥] الوَقْت، تقول العرب: ضحكت الأَرْنَبُ إذا حاضت[٦].

قال الثعلبى فحملت سارة بإسحاق، وكانت حملت هاجر بإسماعيل فوَضَعَتَا معًا وشَبَّ الغُلامان فتسابقا، فسبق إسماعيل، فأخذه إبراهيم وأجلسه فى حجره وأخذ إسحاق إلى جانبه فغضبتْ سارة، وقالت: عمدت إلى ابن الأَمَة فأجلستَه فى حجرك، وعمدت إلى ابنى فأجلسته إلى جنبك، وأخذها ما يأخذ النساء من الغيرة، فحلفت لتقطعن منها بضعة ولتغيرنّ خلقها، ثم ثاب إليها عقلها فتحيرت فى يمينها قال لها إبراهيم أخفضيها واثقبى أُذُنَيْها،

(١) الثعالبى ص٨٠.

(٢) الثعالبى ص٨٠ ـ ٨١.

(٣) الثعالبى ص٨١.

(٤) الثعالبى ص٨١.

(٥) فى ل: «من»، والمثبت من م، والثعالبى.

(٦) الثعالبى ٨١.

ففعلتْ ذلك فصارت سُنَّة فى النساء[١].

والخفاض بالمعجمات للنساء كالختَان للرجال.

ثم تضارب إسماعيل وإسحاق كما يتهارش الأطفال، فغضبت سارة على هاجر وحلفت أن لا تساكنها فى بلد واحد، وأمرتْ إبراهيم أن يعزلها عنها، فأَوْحَى الله تعالى إلى إبراهيم أن يأتى بهاجر وابنها إلى مكة، فذهب بهما حتى قدم مكة وهى إذ ذاك عَضَاهٌ وسَلَمٌ وموضع البيت رَبْوةٌ حمراء فعمد بها[٢] إلى موضع الحِجْر بسكون الجيم فأنزلهما فيه، وأمرهما أن يتخذا عريشًا ثم انصرف، فتبعَتْه هاجر فقالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا، فرجعت عنه وكان معها شَنٌّ ماء فنفد فعطشتْ وعطش ولدها، فنظرت إلى الجبل فلم تَرَ داعيًا ولا مجيبًا فصعدت على الصَّفَا فلم تر أحدًا، ثم هبطت وعينها من ولدها حتى نزلت فى الوادى فغابت عنه فهَرْوَلَتْ حتى صعدت من الجانب الآخر فرأته، واستمرّت إلى أن صعدت المَرْوَة فما رأَتْ أحدًا فتردَّدَتْ كذلك سبعًا فعادت إلى ولدها، وقد نزل جبريل عليه السلام فضرب موضع زمزم بجناحه فنَبَع الماء فبادرتْ هاجر إليه وحبَسته عن السَّيلان كيلا يضيع الماء، وفى لفظ النبوّة: «لولا أنها عَجِلَتْ لكان عَيْنًا مَعينًا» فشربَتْ وأرضعَتْ ولدها، وقال لها جبريل: لا تخافى الضيعة. فإن هاهنا بَيْت الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيّع أهله[٣].

قال الإمام أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن أبى بكر القرطبى فى تفسيره: لا يجوز لأحد أن يتعلق بهذا الحديث فى جواز طرح ولده وعياله بأرض مضيَعة اتكالاً على العزيز الرحيم واقتداء بفعل إبراهيم والخليل، فإنه فعل ذلك بأمر الله تعالى، وقد روى أن سارة لما غارت من هاجر بعد أن ولدت إسماعيل خرج بها إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى مكة وأنزل ابنه وأمَّه هناك، وركب منصرفًا من يومه، وكان ذلك كلُّه بوَحْى من الله تعالى.

(١) الثعالبى ص٨١، وما بين حاصرتين منه.

(٢) كذا فى م، ومثله لدى الثعالبى، وفى ل: «بهما».

(٣) الخبر بطوله لدى الثعالبى ص٨١ ـ ٨٢.

ولماء زَمْزَم من الشرف والخواصَ والمزايا ما لا يوجد لغيره ففى المستدرك من حديث ابن عبّاس ـ رضى الله عنه ـ مرفوعًا: «ماء زَمْزَم لِمَا شُرِبَ له، ورجاله موثوقون إلا أنه اختلف فى إرساله ووصله، وإرساله أصح كذا فى فتح البارى لشرح البخارى.

وروى الدارقطنى عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ماء زمزم لما شرب له، وإن شربته لشبعك أشبعك الله به، وإن شربته لقطع ظَمَئك قطعه، وهى ضربة جبريل، وسقيًا الله إسماعيل».

وعن عِكْرِمَةَ قال كان ابن عبّاس إذا شرب من زمزم قال: اللهم إنى أسألك علمًا نافعًا ورزقًا واسعًا وشفاء من كل داء.

وفى صحيح البُخارى قال أبو ذر ـ رضى الله عنه ـ: ما كان لى طعام إلا ماء زمزم فسمنتُ حتى تكسّرت عُكَنُ بطنى وما أَجِدُ على كبدى سخفة جُوع، وذكر أنه اجتزأ به ثلاثين ما بين يوم وليلة.

وفى صحيح مُسْلم من حديث أبى ذرٍّ: إنه طَعَامُ طُعْمٍ، وزاد الطيالسى فى الوجه الذى أخرجه مسلم «وشفاء سقْمٍ» قال القاضى أبو بكر بن العَرَبى ـ رضى الله عنه ـ: وهذا موجود فيه إلى يوم القيامة لمن صَحَّتْ نِيَّتُهُ وسلمت طويَّتُهُ ولم يكن مكذبًا ولا لشربه مجربًا.

قلت: ومن عجيب ما اطلعتُ عليه فى كتاب وفاء الوفا فى أخبار دار المصطفى للسيّد نور الدين علىّ السَّمْهُودى الشافعى عالم المدينة فى عصره ومحدّثها ومؤرخها وقد أخذْنَا عمّن أخذ عنه فنروى عنه بواسطة، قال: إن بالمدينة بئر تُعْرَف ببئر زَمْزَم، لم يزل أهل المدينة قديمًا وحديثًا يتبركون بها ويشربون من مائها ويُنْقَل عنها ماؤها إلى الآفاق، كما يُنْقَل ماء زمزم، ويسمّونها ببئر زمزم لبركتها[1]. انتهى.

رَجَعْنَا إلى القصّة، قالوا: ومرّت رُفقة من جُرْهُم يريدون الشام، فرأوا طيرًا يحوم على جبل أبى قُبَيْس فقالوا: إن هذا الطير يحوم على ماءٍ، فتتبّعوه

(١) وفاء الوفا ص١١٣٨.

فأشرفوا على بئر زمزم، فقالوا لهاجر: إن شئت نَزَلْنا مَعَك وآنَسْنَاكِ والماء ماؤك، نشرب منه، فأذنتْ لهم، فنزلوا معها وهم أوّل سُكَّان مكة[1].

وتُوُفّيت هاجر وقبرها فى الحِجْر ـ بسكون الجيم ـ وشَبَّ إسماعيل فتزوج إسماعيل من جُرْهُم وتكلّم بلسانهم فتعرّب، فيقال لبنى إسماعيل: العَرَب المُتَعَرِّبة، ويقال لجُرْهُم وقطحان: العرب العَارِبة والعَرَب العَرْبَاء، وكان لسان إبراهيم عبرانيًا ولسان إسماعيل عَرَبيًا، ثم إن إبراهيم عليه السلام استأذن سارة أن يَزُورَ هاجر وابنها فأذنَتْ له وأشرطت أن لا ينزل عندها فقدم إبراهيم مكة وقد ماتت هاجر فأتى إلى بيت إسماعيل فوجد امرأته؛ فسَألَها أين صاحبُك؟ فقالت: ذهب يتصيّد، وكان إسماعيل عليه السلام يخرج من الحرم إلى الحِلّ يتصيّد ما يتعيّش به، فقال لها: هل عندك ضيافة من طعام أو شراب؟ قالت: ليس عندى شىء، فقال لها: إذا جاء زَوْجُك فأقرئيه منّى السلام، وقولى له: غَيِّرْ عتبَةَ بَيْتِكَ، وذهب إبراهيم عليه السلام، فلمّا جاء إسماعيل عليه السلام، قالت له: جاءنى شيخ صفتُه كذا وكذا أقرأك السلام، وقال لك: غير عتبة بيتك. فقال لها: الحقى بأهلك وتَزَوّجَ غَيْرَها[2].

فمكث إبراهيم مدّة، ثم استأذن سارة أن يزور إسماعيل فأذنَت له واشترطت عليه أن لا ينزل فجاء إبراهيم إلى مكة وقدم على منزل إسماعيل فوجده غائبًا فى الصيد، فقال لامرأته أين صاحبك؟ قالت: ذهب يتصيّد ورَحَّبتْ به وقالت له، اجلس رحمك الله، وجاءتْه بلحم ولبن وماء فأكل وشرب، فقالت له: يا عم هَلُمَّ حتى أغسل رأسك وألمّ شَعَثَك، وجاءتْه بحجر وهو حجر المقام الذى بَنَى عليه الكعبة فيما بعد فجلس عليه فغاصَ رجلاه فى الحجر فغسلت شقَّه الأيمن ثم الأيسر، ثم أفاضت الماء على رأسه وبدنه إلى أن فرغت من تنظيفه فقام من عندها وتوجه من حيث جاء، وقال لها: إذا جاء صاحبك فاقرئى عليه السلام منّى وقولى له: قد استقامت عتبة

(١) الثعالبى ص٨٢.

(٢) الثعالبى ص٨٢ ـ ٨٣.

بابك فالزمها[١].

فلما جاء إسماعيل وجد رائحة أبيه فقال لها: هل جاءك أحد؟ فقالت: نعم، جاءنى شيخ من أحسن الناس وجهًا وأَطْيَبِهم ريحًا فأضفته وسقيته وغسلته وهذا موضع قدمَيْه، وحين توجه أقرأك السلام وقال لك كذا وكذا، فقال: نعم، أمرنى أن أثبت مَعَكِ وقبل موضع قدم أبيه من الحجر وحفظه يتبرك به إلى أن بنى عليه فيما بعد إبراهيمُ عليه السلام الكعبة لما بناها، هكذا فى قصص الأنبياء[٢].

وروى فيها أيضًا عن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: أشهد بالله ثلاث مرات أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما ولولا أن طمس الله نورهما لأضاءا ما بين المشرق والمغرب»[٣].

ثم لمّا أمر الله تعالى خليله إبراهيم عليه السلام ببناء بيته الشريف قدم إلى مكة وبناه كما قدّمناه، فلمّا فرغ من بناء بيت الله الحرام أمره أن يُؤذن فى الناس بالحجّ، فقال: يا رب وما عَسَى أن يبلغ مدُّ صوتى، فقال: عليك الأذان وعلينا الإبْلاغُ، فطلع على جبل ثَبِير ونَادَى يا عباد الله، إن ربّكم قد بنى بيتًا وأمركم أن تحجّوه فحجّوه وأجيبوا داعىَ الله، فأسمع الله صَوْته جميعَ مَنْ فى الدنيا ومن سيُولَدُ ممّن هو فى أصلاب الآباء وأرحام الأمّهات إلى يوم القيامة، فأجابه مَنْ سَبَقَ فى علم الله أنه سيحجّ، ولَبَّى كلّ واحد بعدد حجّه فى أصلاب الآباء وأرحام الأمهات.

وأمَّا أَمْرُ الله تعالى إبراهيم بذبح ولده إسماعيل عليه السلام فقد اختلف العلماء فى أن المأمور بذبحه إسماعيل أو إسحاق، فقال قوم: هو إسحاق، وذهب إليه عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ـ رضى الله عنهم ـ، وذهب عبد الله بن عمرو، وابن المسيب، والشعبى، ومجاهد، والحسن

(١) الثعالبى ص٨٣.

(٢) الثعالبى ص٨٣.

(٣) الثعالبى ص٨٣.

البصرى ـ رضى الله عنهم ـ أنه إسماعيل.

قال الإمام أبو زكرياء النَّوَوى رحمه الله فى كتابه التهذيب: اختلف العلماء رحمهم الله فى الذبيح هل هو إسماعيل أو إسحاق عليهما السلام، والأكثرون على أنه إسماعيل عليه السلام[1]. انتهى.

وممّن رجّح كون الذبيح إسماعيل عليه السلام، الحافظ عِماد الدين إسماعيل بن كثير رحمه الله، قال فى ترجمته: وهو الصحيح.

وروى عن كعب الأحبار عن رجال قالوا لمّا أرِى إبراهيم فى المنام أن يذبح ابنه وتحقّق أنه أمرُ ربِّه، قال لابنه: يا بُنَىَّ خذ الحبل والمُدْيةَ وانطلق بنا إلى هذا الشعب لنحتطب لأهلنا، فأخذ المدية والحبل وتبع والده، فقال الشيطان لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتن أحدًا منهم أبدًا، فتمثّل الشيطان رجلاً فأتَى أمَّ الغلام فقال لها: أتَدْرين أين ذهب إبراهيم بابْنكِ؟ قالت: ذهب به ليحتطب لنا من هذا الشعب، فقال لها الشيطان: لا والله ما ذهب به إلا ليذبحه، قالت: كَلاَّ هو أشفقُ به وأشدُّ حبًا له، فقال لها: إنه يزعم أن الله أمره بذلك، قالت: فإن كان الله تعالى قد أمره بذلك فليُطِعْ أمرَهُ، فخرج الشيطان من عندها حتى أدرك الابْنَ وهو يمشى على أثر أبيه فقال له: يا غلام، هل تدرى أين يذهب بك أبوك؟ قال: نحتطب لأهلنا من هذا الشعب، فقال له: والله ما يريد إلا ذبحك، قال: لأى شىء؟ قال: زعم أن الله تعالى أمره بذلك. قال: فليفعل ما أمره الله تعالى، سمعًا وطاعةً لأمر الله تبارك وتعالى.

فأقبل الشيطان إلى إبراهيم عليه السلام فقال: أين تريد أيّها الشيخ؟ قال: أريد هذا الشعب لحاجة لى فيه، قال: إنى أرى أن الشيطان خَدَعَك بهذا المنام الذى رأيتَه أنك تريد ذبح ابنك وفلذة كبدك فتندم بعد ذلك. حيث لا ينفعك الندم، فعرَفَه إبراهيم عليه السلام، وقال له: إليك عنّى يا ملعون، فوالله لأمضين لأمر ربى، فنَكَصَ إبليس على عقِبَيْه ورجع بخَزْيِهِ وغَيْظِهِ ولم

(١) تهذيب الأسماء واللغات ق ١ ج١ ص١١٦.

يَنَلْ من إبراهيم ولا من ولده ولا من زوجته شيئًا.

فلمّا خلا إبراهيم عليه السلام فى الشعب ويقال ذلك فى ثبير فقال له: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، قال: فحُدِّثْتُ أن إسماعيل قال له عند ذلك: يا أَبَتَاهُ إذا أردتَ ذبحى فاشدُدْ وثاقى لئلا يصيبك شىء من دمى فينقص أجرى، فإن الموت شديد ولا آمن أن أضطرب عنده إذا وجدتُ مَسَّه، واستحدّ شَفْرَتَك حتى تجهز علىّ فتذبحنى، فإذا أنت أضجعتنى لتذبحنى فاكبُبْنى على وجهى ولا تضجعنى لشقّى، فإنى أخشى إن أنت نظرت إلى وجهى أن تدركك الرِّقَّةُ فتحول بينك وبين أمر ربّك فىَّ، وإن رأيت أن تردّ قميصى إلى أمى فإنه عسى أن يكون إسلاءً لها فافعلْ، فقال إبراهيم: نعم العون أنت يا بُنَىَّ على أمر الله.

ويقال: إنه رَبَطَه كما أمره بالحبل فَأَوْثقه، ثم شحذ شفرته، ثم تَلَّه للجبين واتّقى النظر إلى وجهه، ثم أدخل الشفرة حَلْقَه فقلبها جبريل عليه السلام فى يده، ثم اجتذبها إليه، ونودى أن يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا، فهذه ذبيحتك فداء لابنك فاذبحْها دونه، وأتاه بكَبْش من الجنّة، قيل رعى قبل ذلك بأربعين خريفًا.

قال الفاكهى رحمه الله: ذكر أهل الكتاب وكثير من العلماء أن الكبش الذى فُدِى به إسماعيل كبش أملح أقرن أعيَن. ثم روى بسنده عن ابن عبّاس رضى الله عنه أنه هو القُرْبان المتقبَّل من أحد ابنَىْ آدم.

فانظرْ رحمك الله إلى طاعة هذا الوالد أمر الله تعالى من ذبح ابنه قرّة عينه وقطعة كبده، وإلى طاعة هذا الولد أمر الله تعالى وأمر والده وانقياده كل الانقياد راضيًا مستسلمًا باذلاً روحه لله تعالى، وانظر، إلى هذه الوالدة الشفيقة الرحيمة وإطاعتها لأمر الله تعالى وإطاعة زوجها، اللهم صلِّ وسلّم عليهم أفضل صلاتك وسلامك وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وانفعنا ببركاتهم أجمعين، وارزقنا التوفيق وحسن

اليقين، آمين.

قال الأزرقى: ثم وُلد لإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام من زوجته السيدة رعلة بنت مُضاض بن عمرو الجُرْهمى اثنا عشر رجلاً، منهم: نابت ابن إسماعيل، وقَيْدار بن إسماعيل، وقَطُورا بن إسماعيل، وكان عمر إسماعيل مائة وثلاثين عامًا، ومات ودفن فى الحِجْر مع أُمِّه، فولى البيت بعده نابت بن إسماعيل، ونشر الله العرب من نابت وقيدار فكثروا ونَمَوْا، ثم توفّى نابت فولى البيت بعده جدُّه لأُمِّه مُضاض بن عمرو الجُرْهمى، وضَمَّ بنى نابت بن إسماعيل وصار ملكًا عليهم وعلى جُرْهُم، فنزلوا بِقُعَيْقِعَانَ بأعالى مكة، وكانوا أصحاب سلاح كثير ويتقعقع فيهم، وصارت العمالقة وكانوا نازلين بأسفل مكة إلى رجل منهم ولّوه ملكًا عليهم يقال له السمَيْدَع، ونزلوا بأَجْياد وكانوا أصحاب خيل وإبل وكان الأمر بمكة لمضاض ابن عمرو دون السميدع، إلى أن حدث بينهما البَغْىُ واقتتلوا فقُتل السميدع، وتم الأمر لمضاض بن عمرو وفى ذلك يقول:

ونحن قتلنا سيّد الحىّ عَنْوَةً ... فأصبح فيها وهو حَيْرَانُ مُوجَعُ
وما كان يبغى أن يكون خلافنا ... بها ملك حتى أتانا السمَيْدَعُ
فذاق وبَالاً حين حاول ملكنا ... وعالج منّا غُصَّة تتجرَّعُ
فَنحن عمرنا البيت كنّا وُلاته ... ندافع عنه من أتانا ونَدْفَعُ
وما كان يبغى أن يلى ذاك غيرنا ... ولم يكُ حى قبلنا ثمّ يَمْنَعُ
وكنّا ملوكًا فى الدهور التى مَضَتْ ... ورثنا ملوكًا لا ترام فتوضعُ[1]

ثم نشر الله بنى إسماعيل وخئولتهم من جُرْهُم وكانت جُرْهم ولاة البيت لا ينازعهم بنو إسماعيل لخئولتهم وقرابتهم، فلمّا ضاقت عليهم مكة انتشروا فى الأرض فلا يأتون قومًا ولا ينزلون بلدًا إلا أظهرهم الله عليهم بدينهم وهو يومئذ دين إبراهيم، حتى ملكوا[2] البلاد ونَفَوْا عنها العماليق وكانوا ولاة

(١) الخبر والشعر لدى الأزرقى ١/ ٨١ ـ ٨٣.

(٢) فى ل: «ملأوا» والمثبت من م، والأزرقى الذى ينقل عنه المصنف.

مكة، وكانوا ضيّعوا حرمة الحرم واستحلّوها واستخفّوا بها فأخرجهم الله من أرض الحرم.

قال: ثم إن جُرْهُمًا استخفّت بأمر البيت الحرام وارتكبوا الأمور العظام وأحدثوا فيها ما لم يكن قبل ذلك، فقام فيهم مُضاض بن عمرو بن الحارث ابن مضاض بن عمرو خطيبًا، فقال: يا قوم احذروا البغى فقد رأيتم من كان قبلكم من العماليق كيف استخفّوا بالبيت فلم يعظموه، فسلّطكم الله عليهم فأخرجتموهم فتفرّقوا فى البلاد وتمزّقوا كلّ ممزّق، فلا تستخفّوا بحقّ بيت الله تعالى فيخرجكم منه، فلم يطيعوه ودلاهم الشيطان بالغرور، وقالوا: من يخرجنا ونحن أعزُّ العرب وأكثرها رجالاً وسلاحًا، فقال لهم: إذا جاء أمر الله بطل ما تقولون[1].

فلما رأى مضاض بن عمرو ذلك عمد إلى غزالتَين من ذهب كانتا فى الكعبة وما وجد فيها من الأموال التى كانت تُهْدى إلى الكعبة ودفنها فى بئر زمزم، وكانت بئر زمزم قد نَضَبَ ماؤها فحفرها بالليل وأعمق الحفر ودفن فيها تلك الغزالتَيْن والأموال وطمّ البئر واعتزل جُرْهُمًا، وأخذ معه بنى إسماعيل وخرج من مكة[2].

فجاءت خُزَاعَةُ فأخرجت جرهمًا من البلاد ووليت أمر مكة وصاروا أهلها، فجاءت بنو إسماعيل وكانوا قد اعتزلوا أيضًا حرب جرهم وخزاعة، فسألوا خزاعة السكن معهم مكة فأذنوا لهم، وسألهم فى ذلك مُضَاضُ بن عمرو الجرهمى وكان قد اعتزل أيضًا حرب جرهم وخزاعة ولم يدخل بينهما، واستأذنهم أن يساكنهم فأبَتْ خزاعةُ ذلك، وقالوا: من قارب الحرم من جُرْهُم فدَمُهُ هدر، فنزعت إبلُ لمضاض بن عمرو ودخلت مكة فأخذَتْها خزاعةُ وصارت تنحرها وتأكلها فتبع مضاض أثرها فوجدها دخلتْ مكة فسلك الجبال حتى طلع على جبل أبى قُبَيْس يتبصّر لإبله فى بطن وادى مكة

(١) الأزرقى ١/ ٨٦.

(٢) الأزرقى ١/ ٩٢.

فأبصر الإبل تُنْحَر وتؤكل ولا سبيل إليها، ورأى أنه إن هبط الوادى قُتل فولّى منصرفًا إلى أهله، وأنشأ يقول:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفَا ... أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكّة سامرُ
ولم يتربّع واسطًا فجنوبُه ... إلى المُنْحَنَى من ذى الأراكة حاضرُ
بلى نحن كنَّا أهلها فأبادنا ... صُرُوف الليالى والجدود العواثرُ
وأبدلنا عنها الأسَى دار غُرْبَةٍ ... بها الذئبُ يعوى[1] والعدوُّ محاصرُ
وكُنَّا وُلاة البيت من بعد نابت ... نطوف بهذا البيت والخير ظاهرُ
وكنا لإسماعيل صهرًا وجيرة ... فأبناؤه منَّا ونحن الأصاهرُ
فأخرجنا منها المليك بقُدْرَة ... كذلك بين الناس تجرى المقادرُ
وصِرْنا أحاديث وكُنَّا بغِبْطَةٍ ... كذلك عَضَّتْنا السنون الغوابرُ
وسَحت دموع العين تبكى لبلدة ... بها حَرَمٌ أَمْنٌ وفيها المشاعرُ
بوادٍ أنيسٍ لا يُطار حَمَامُهُ ... ولا ينفرن يومًا لديها العصافرُ
وفيها وحوش لا ترام أنيسة ... إذا خرجت منها فما أنت غادرُ
فيا ليت شعرى هل يُعَمّر بعدنا ... جيادٌ ويقضى سَيْله والظواهرُ
وهل فرحٌ يأتى بشىء نريده ... وهل جزعٌ يُنْجيك مما تحاذرُ[2]

وانطلق مضاض بن عمرو ومن مَعه إلى اليمن وهم يحزنون على مفارقة مكة، وحارت خزاعة حجابة بيت الله الحرام وولاية أمر مكة وفيهم بنو إسماعيل لا ينازعونهم فى شىء ولا يَطْلُبونه إلى أن كبر شأن قُصَىّ بن كلاب ابن مُرَّة فاستولى على حجابة البيت وأمر مكة، وكان قُصَىٌّ أول رجل من بنى كِنَانَة أصاب بمكة ملكًا فكانت إليه الحجابة والرفادة والسقاية والندوة واللواء والقيادة وهو الذى جمّع أمر قريش فسُمّى مُجَمِّعًا بكسر الميم المشددة، وفى ذلك يقول القائل:

أبوهم[3] قُصَىٌّ كان يُدْعَى مُجَمِّعًا ... به جمّع اللهُ القبائل من فِهْر

(١) فى ل: «يأوى» والمثبت من م، والأزرقى
(٢) الخبر والشعر لدى الأزرقى ١/ ٩٦ ـ ٩٧.
(٣) فى ل: «أبوكم» والمثبت من م، والأزرقى، وشفاء الغرام ٢/ ١١٠.

هم ملكوا البطحاء مجدًا وسؤددًا وهم طردوا عنها غُزَاةَ بنى عمرو[١]

وقيل سُمّيت قريش قُرَيْشًا لتجمُّعهم على قصىّ، والتقرُّش، هو الاجتماع، وما كان يُسَمَّى قريش قبل ذلك قريشًا، وقيل: إن النَّضْرَ بن كنانة كان يُسَمَّى قريش، واستمرّ بنو قصىّ كذلك إلى زمن ظهور النبى ﷺ وقد أطلنا الكلام، فى هذا المقام، وهو مع ذلك قطرة بحر فانتخبنا منه هذا المقدار، لاشتماله على فنون من الاعتبار.

• **الخامس والسادس: بناء العمالقة وجُرْهم:**

ذكر الأزرقىُّ ذلك، وذكر بسنده إلى سيّدنا أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرّم الله وجهه أنه قال فى خبر بناء إبراهيم عليه السلام للكعبة: ثم انهدم فبَنَتْه العمالقة، ثم انهدم فبنَتْه قبيلة من جرهم[٢].

وذكر الفاكهى بسنده إلى سيّدنا على بن أبى طالب أيضًا أنه قال: أول من بنى البيت إبراهيم عليه السلام، ثم انهدم فبَنَتْه جرهم، ثم انهدم فبنته العمالقة[٣].

قال السيّد التقى الفاسى رحمه الله، قلتُ: هذا يقتضى أن جُرْهُمًا بنَت البيت الشريف قبل العمالقة، والخبر الأول يقتضى أن العمالقة بَنَتْه قبل جرهم، وبه جزم المحبُّ الطبرىُّ فى القرى[٤].

وذكر المسعودى فى كتابه مُرُوج الذهب: أن الذى بَنَى الكعبة من جرهم: هو الحارث بن مضاض الأصغر، وأنه زاد فى بناء البيت ورفعَهُ كما كان على بناء إبراهيم عليه السلام[٥]. والله أعلم بحقيقة الحال.

وذكر الأزرقى شيئًا من خبر العمالقة يقتضى سبقهم على جرهم، فإنه

(١) الأزرقى ١/ ١٠٠، ١٠٧، ١٠٨.
(٢) نقله الفاسى ١/ ١٥٢.
(٣) نقله الفاسى ١/ ١٥٢.
(٤) الفاسى ١/ ١٥٢.
(٥) مروج الذهب ٢/ ٥٠.

روى بسنده إلى سيدنا عبد الله بن عبّاس رضى الله عنهما أنه قال: كان بمكة حى يقال لهم العماليق، كانوا فى عزّة وثَرْوة، وكانت لهم خيل وإبل وماشية ترعى حول مكة، وكانت العِضَاهُ ملتفة والأرض مبقلة وكانوا فى عيش رخىّ، فبغوا فى الأرض وأسرفوا على أنفسهم وأظهروا المظالم والإلحاد وتركوا شكر الله فسلبوا نعمتهم، وكانوا يُكْرُون بمكة الظلَّ ويبيعون الماء، فأخرجهم الله تعالى من مكة بأن سلط عليهم النمل حتى خرجوا من الحرم، ثم ساقهم بالجدب حتى ألحقهم الله تعالى بمساقط رءوس آبائهم ببلاد اليمن، فتفرّقوا وهلكوا وأبدل الله تعالى بعدهم الحرم بجُرْهم، فكانوا سُكَّانه إلى أن بغوا فيه أيضًا فأهلكهم الله جميعًا[1]. انتهى.

• **السابع: بناء قُصَىّ للكعبة الشريفة المعظمة:**

ذكر الزبير بن بكّار قاضى مكة فى كتاب النسب، أن قُصَىّ بن كلاب لمّا ولى أمر البيت جمع نفقته ثم هدم الكعبة فبَنَاها بنيانًا لم يَبْنه أحدٌ ممّن بناها قبله مثله[2].

وقال أبو عبد الله محمد بن عائذ الدمشقى فى مغازيه: إن قُصَىًّ بن كلاب بنى البيت الشريف.

وجزم به الإمام الماوردى فى الأحكام السلطانية، فإنه قال فيها: أول من جدّد بناء الكعبة من قريش بعد إبراهيم عليه السلام قصىٌّ بن كلاب، بنى البيت الشريف وسقَّفَه بخشب الدَّوْم وجريد النخل[3]. انتهى.

قال السيّد التقى الفاسى فى شفاء الغرام: وما رواه القاضى الزبير بن بكار أن قُصَيًّا بنى الكعبة على خمسة وعشرين ذراعًا ففيه نظر، لما اشتهر فى الأحكام السلطانية، فإنه قال: إن إبراهيم الخليل عليه السلام بنى طول الكعبة

(١) الأزرقى ١/٨٩.

(٢) نقله الفاسى فى شفاء الغرام ١/١٥٢.

(٣) الأحكام السلطانية ص٢٠٣.

تسعة أذرع، وإن قريشًا لما بَنَت الكعبة زادت فى طولها تسعة أذرع، وأن قصيًا أراد أن يجعل عرضها خمسة وعشرين ذراعًا فالمعروف أن عرضها من الجهة الشرقية والغربية لا ينقص عن ثلاثين ذراعًا فى بناء الخليل عليه السلام بل يزيد على خلاف مقدار الزيادة، وإن أراد عرضها من الجهة الشامية واليمانية فعرضها فى هاتَيْن الجهتَيْن ينقص عن خمسة وعشرين ذراعًا، ثلاثة أذرع أو أزيد وكل من بنى الكعبة بعد إبراهيم عليه السلام لم يَبْنها إلا على قواعد إبراهيم، غير أن قريشًا اقتصرت من عرضها من جهة الحِجْر الشريف لأمرٍ اقتضاه الحال، وصنع ذلك الحجّاج بعد عبد الله بن الزبير عنَادًا له[1]. والله تعالى أعلم.

وكان مَبْدأُ أمر قُصَىٍّ أن أباه كلاب بن مُرَّة تزوّج فاطمة بنت سعد بن سَيْل، فولدت له زُهْرَة وقُصَيًا فهلك كلاب وقصى صغير ـ وهو بضم القاف وفتح الصاد المهملة تصغير قَصِى بفتح القاف وكسر الصاد ـ بمعنى بعيد واسمه زَيْد، وإنما لُقّب قُصَيًا لأنه أبعد عن أهله ووطنه مع أمه لما توفى أبوه، فإنها تزوجت ربيعة بن حَرَام فرحل بها إلى الشام وولدت له رزَاحًا، فلما كَبُرَ قُصَى وقع بينه وبين آل ربيعة شرّ فعيّروه بالغُربة وقالو له: ألا تلحق بقومك، وكان لا يُعْرف له أبًا غير ربيعة بن حَرَام زوج أُمّه، فشكا إليها ما عيّروه به فقالت له: يا ولدى، أنت أكرمُ آباءً منهم، أنت ابن كلاب بن مُرَّة وقومك بمكّة عند البيت الحرام، فَقَدِم مكة فعرف له قومه فضله وقدّموه وأكرموه، وكانت خزاعة مستولية على البيت وعلى مكة، وكان كبيرهم حُلَيْل بن حُبْشِيَّة الخزاعىّ بيده مفتاح البيت الشريف وسدانته فخطب إلى حُلَيْل ابنته فعرف حليل نسبَهُ فزوّجه ابنته حُبَّى فتزوجها قصىٌّ وكثرت أولاده وأمواله وعظم شرفه، وهلك حليل وأوصى بمفتاح البيت الشريف لابنته حُبَّى، فقالت: لا أقدر على السدانة، فجعلت ذلك لأبى غُبْشَانَ وكان سكّيرًا يُحِبُّ الخمر، فأعوزه فى بعض الأوقات ما يشربه من الخمر فباع مفتاح البيت بزقٍّ خمر

(١) شفاء الغرام ١/ ١٥٣.

فاشتراه منه قصيٌّ[١] وسار في الأمثال: أخْسَرُ صَفْقَةً من أبي غُبْشَان[٢].

فلمّا صار المفتاح إلى قصيّ تناكرتْه خُزَاعَةُ وكثر كلامها عليه، فاجتمع على حربهم فحاربهم وأخرجهم من مكة، وولى قصيٌّ أمر الكعبة ومكة وجمع قومه فملّكوه على أنفسهم، وكانوا يحترمون أن يسكنوا بمكة ويعظمونها عن أن يبنوا بها بيتًا مع بيت الله تعالى، وكانوا يكونون بها نهارًا فإذا أمْسوا خرجوا إلى الحلّ ولا يستحلّوا الجنابة بمكة.

فلمّا جمع قصيٌّ قومه إليه أذن لهم أن يبنوا بمكة بيوتًا وأن يسكنوها، وقال لهم: إنكم إن سكنتم الحرم حول البيت هابَتْكم العَرَبُ ولم تستحلّ قتالكم ولا يستطيع أحدٌ إخراجكم، فقالوا له: أنت سيدنا ورَأْيُنا تبع لرأيك فجمعهم حول البيت وفي ذلك يقول القائل:

أبوهم قُصَيٌّ كـــان يُدْعَى مُجَمِّعًا ... به جمّع اللهُ القبـائل من فِهر

وأنتم بنـــو زَيْـد وزَيْدٌ أبوكـم ... به زِيدَت البطحاء فخرًا على فخر

وابتدأ هو فبَنَى دار النَّدْوة، والنَّدْوَةُ في اللغة: الاجتماع، وكانوا يجتمعون فيها للمشورة وغيرها من المهمّات، فلا تنكح امرأة ولا يتزوّج رجل من قريش إلاّ فيها.

قال الأزرقي: ولا يدخل من قريش ولا غيرهم إلا ابن أربعين سنة، وكان ولد قصيّ يدخلها كلُّهم أجمعون[٣]، وقسم جهات البيت الشريف بين طوائف قريش بنوا دُورَهم حول الكعبة الشريفة من جهاتها الأربع، وتركوا للطواف ببيت الله تعالى مقدارًا يقال إنه المفروش الآن حول البيت الشريف بالحجر المنحوت المسمَّى بالمطاف الشريف وشرّعوا أبواب بيوتهم إلى نحو البيت وتركوا ما بين كلّ بيتَيْن طريقًا ينفذ منه إلى المطاف، إلى أن زاد عمر رضي الله عنه في المسجد الحرام وتبعه عثمان وتبعهما غيرهما على ما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى.

(١) جمهرة ابن حزم ص٢٣٦.

(٢) شفاء الغرام ٢/ ١١٤.

(٣) أخبار مكة ١/ ١٠٩.

وكان قصى أول ملك من بنى كعب بن لؤى أصاب ملكًا فأطاعه به قومه وله كلمات حكم تؤثر عنه منها: من أكرم لئيمًا أشركه فى لؤمه ومن استحسن قبيحًا ترك إلى قبحه، من لم تصلحه الكرامة أصلحه الهوان، ومن طلب فوق قدره استحق الحرمان.

وكان اجتمع لقصى ما لم يجتمع لغيره من المناصب، فكان بيده الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء والقيادة فالحجابة هى سدانة البيت الشريف أى تولية مفتاح بيت الله تعالى، والسقياة إسقاء الحجيج كلهم الماء العذب، وكان عزيزًا بمكة يُجْلَبُ إليها من الخارج فيُسْقى الحُجَّاج منه وينبذ لهم التمر والزبيب فيسقونه للحُجَّاج وكانت وظيفة فيهم، والرفادة وذلك إطعام لسائر الحجاج تمد لهم الأسمطة فى أيام الحج وكانت السقاية والرفادة مستمرّة إلى أيام الخلفاء ومن بعدهم من الملوك والسلاطين.

قال السيّد التقى الفاسىُّ رحمه الله: إن الرفادة كانت أيام الجاهلية وصدر الإسلام واستمرّت إلى أيامنا، وقال: وهو الطعام يُصْنع بأمر السلطان كل عام بمنًى للناس حتى ينقضى الحجُّ.

قلتُ: وأما فى زماننا فلا يُفْعَل شىء من ذلك ولا أدرى متى انقطع، وأمّا النَّدْوَةُ فقد تقدّم بيانها، وأما اللواء فراية يلوونها على رُمْح وينصبونها علامةً للعسكر إذا توجّهوا إلى محاربة عَدُوٍّ فيجتمعون تحتها ويقاتلون عندها، والقيادة إمارة الجيش إذا خرجوا إلى الحرب، وهذه كلها اجتمعت فى قُصَىّ، فلمّا كبر سنُّه وضَعُفَ بدنه قسمها بين أولاده، وكان عبد الدار أكبر أولاده، وكان عبد مناف، شَرُفَ فى زمان أبيه فقال قصىٌّ لعبد الدار: لأُلْحقَنَّك يا بُنَىَّ بالقوم وإن شرفوا عليك، فأعطاه الحجابة وسلم إليه مفتاح البيت، وقال: لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له، وأعطاه السقاية واللواء، وقال: لا يشرب أحد إلاَّ من سقايتك ولا يَعْقد لواء لقريش لحربها إلا أنت بيَدِكَ، وجعل له الرفادة وقال له: لا يأكل أحدٌ من أهل الموسم طعامًا إلا من طعامك، وكانت الرفادة خرجًا تخرجه قريش من أموالها فى

كلّ موسم فتدفعه إلى قصىّ فيَصْنع به طعامًا للحاجّ فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد.

وكان قصىٌّ فرض ذلك على قريش حين جمعهم وقال لهم: يا معشر قريش: إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل حرمه وإن الحاجَّ ضيفُ الله وزُوَّار بيته، وهم أحقُّ الأضياف بالكرامة فاجعلوا لهم طعامًا وشرابًا أيام الحجّ حتى يَصْدُروا عنكم، فجعل قصىٌّ كُلّ ما كان بيده من أمر قومه إلى عبد الدار، وكان قصىٌّ لا يخالف ولا يُرَدُّ عليه شيء صنعه لعظم شأنه ونفاذ سلطانه.

قال ابن إسحاق: ثم إن قصيًا هلك فأقام على أمره بنوه من بعده، ثم إن بنى عبد مناف هاشمًا وعبد شمس والمطَّلب ونَوْفَلاً أجمعوا على أن يأخذوا ما بأَيْدى بنى عبد الدار من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة، ورأَوْا أنّهم أَوْلَى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم، وتفرّقت قريش فكانت طائفة منهم يَرَوْن أن بنى عبد مناف أحقُّ من بنى عبد الدار، وطائفة يَرَوْنَ إبقاءَ بنى عبد الدار على ما جعله قصىٌّ لأَبِيهم.

فأجمعوا على الحرب، ثم اصطلحوا على أن تكون السقاية والرفادة لبنى عبد مناف، والحجابة واللواء، والندوة لبنى عبد الدار، وتحالفوا على ذلك، فولى الرفادة والسقاية هاشم.

وكان عبد شمس سَفَّارًا مُقِلاً ذا ولد، وكان هاشم مُوسِرًا وهو أول من سنَّ الرحلَتَيْن لقريش رحلة الشتاء، ورحلة الصيف، وهو أول من أطعم الثريد بمكة، واسمه عمرو، وإنما سُمّى هاشمًا لهَشْمِه الخُبز وثرده لقومه كما قال القائل:

عَمْرُو الذى هَشَمَ الثّريدَ لقومه ... ورجـالُ مكـةَ مُسْنِتُونَ عِجَافُ

سُنَّتْ إليه الرحلتـان كلاهمـا ... سفر الشتـاء ورحـلة الأصيـاف[1]

(١) ابن هشام ١/١٣٦، تاريخ الطبرى ٢/٢٥٢، والمسنتون: الذين أصابتهم السنة المجدبة الشديدة.

ثم هلك هاشم بغَزَّة من أرض الشام، تاجرًا فولى السقاية والرفادة أخوه المطلب بن عبد مناف وكان ذا شرف وكرم، وكان يُسَمَّى الفَيْض لسماحته وفضله، وكان أصغر من عبد شمس، فتوفى المطّلب بِرَدْمَانَ[١] من أرض اليمن، وتوفى عبد شمس بمكة وتوفى نوفل بالعراق[٢].

ثم ولى عبد المطلب بن هاشم السقاية والرفادة من بعد عمّه المطلب، فأقام لقومه ما كانت تقيمه آباؤه من قبله وشرف فى قومه شرفًا لم يبلغه أحدٌ من آبائه، وأَحَبَّه قومه وعظم خطره فيهم، وكان أكبر أولاده الحارث لم يكن له أول أمره غيره وبه كان يكنّى، فقال له عدىٌّ بن نوفل بنُ عبد مناف: يا عبد المطلب أتستطيل علينا وأنت فَذ لا ولدَ لك؟ فقال له عبد المطلب: أو بالقلة تُعيِّرنى فوالله لَئن أتانى الله تعالى عشرة من الولد لأَنْحَرَنَّ أحدهم عند الكعبة[٣].

فلما كمّل له عشرة جمعهم ثم أخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك، فأطاعوا وقالوا له: أوف بنذرك وافعل ما شئت، قال: ليأخذ كلٌّ واحد منكم قدحًا فيكتب فيه اسمه ثم ائتونى، ففعلوا ودخل بهم على هُبَل وهو صنمٌ كان يُعْبَدُ فى جوف الكعبة ـ فقال عبد المطلب لصاحب القداح اضْرب على هؤلاء بقداحهم، فأعطاه كلٌّ واحد قدحه وكان عبد الله بن عبد المطلب أصغرهم سنًا وأحبَّهم إلى والده، ثم ضرب صاحب القداح فخرج السهمُ على عبد الله فأخَذَ عبد المطلب بيده وأخذ الشَّفْرَةَ ثم أقبل به على أساف ـ وهو صنم كان على الصَّفَا ـ ليَذْبحه عنده، فجذب العَبَّاسُ عبدَ الله من تحت رجْلِ أبيه حتى أثر فى وجهه شجَّة فلم تزل فى وجه عبد الله إلى أن مات، فقامت قريش من أَنْدِيَتِهَا وقالوا: لَئنْ فعلتَ هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه فيذبحه فما بقاء الناس على هذا! ولكن اعذر فيه فنَفْدِيه بأموالنا[٤].

(١) تحرف فى الأصلين إلى «رُومَان» وصوابه من ابن هشام، وشفاء الغرام، وياقوت.
(٢) سيرة ابن هشام ١/ ١٣٨ ـ ١٣٩.
(٣) ابن هشام ١/ ١٥١.
(٤) ابن هشام ١/ ١٥١ وما بعدها.

وكان بالحجاز عَرَّافَةٌ كاهنة لها تابعٌ من الجنّ فانطلقوا به حتى قدموا عليها وقَصَّ عليها عبد المطلب خبر نذره، فقالت لهم: ارجعوا عنّى اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله فرجعوا من عندها ثم غدوا عليها فقالت لهم: كم الدِّيَةُ فيكم؟ فقالوا: عشرة من الإبل، فقالت لهم: قرِّبوا عن ولدكم عشرة من الإبل ثم اضربوا عليها وعليه، فإن خرجت على ولدكم فزيدوا عشرة أخرى واضربوا عليها وعلى ولدكم واستمرّوا كذلك إلى أن يخرج السهمُ على الإبل فانحروها عنه، فقد رضى ربُّكم ونجا ولدكم[1].

فخرجوا حتى قدموا مكة، فقرّبوا عشرة من الإبل فضربوا القداح فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشرة، فخرج على عبد الله، واستمرّوا يزيدون عشرة فعشرة حتى بلغت الإبل مائة، فخرج القدح على الإبل فأعادوه ثانية ثم ثالثة فخرج القدح على الإبل، فأُتِىَ بها فنُحِرَتْ ثم تُرِكَت لا يُمْنَع عن لحُومها آدمى ولا وحش ولا طير[2].

قال الزهرى: وكان عبد المطلب أول من سَنَّ ديةَ النفس مائة من الإبل، فجرت فى قريش ثم نشأت فى العرب وأقرها رسول الله ﷺ.

• **الثامن: بناء قُرَيْش للكعبة المعظمة:**

قال خاتمة الحُفَّاظ والمحدِّثين مولانا الشيخ محمّد الصالحى قدّس الله تعالى روحه فى كتابه سُبُل الهُدَى والرَّشَاد فى سيرة خَيْرِ العباد وهو أحسن كتاب للمتأخّرين وأبسطه فى السيرة النبوية ولنا به إجازة عامّة رحمه الله: إن امرأة جَمَّرت الكعبة بالبخور فطارت شرارة من مِجْمَرِها فى ثياب الكعبة فاحترق أكثرُ أخشابها ودخل سَيْل عظيم فصدع جدرانها بعد تَوْهينها، فأرادوا أن يشدّوا بنيانها ويرفعوا بابها حتى لا يدخلها إلا من شاءوا، وكان البحر قد رمى بسفينة إلى ساحل جُدَّةَ لتَاجِرٍ رُومِىٍّ اسمه باقوم ـ بموحدة وقاف

(١) ابن هشام ١/ ١٥٤.

(٢) ابن هشام ١/ ١٥٤، ١٥٥.

مضمومة ـ وكان بَنَّاء نَجَّارًا فخرج الوليد بن المغيرة فى نفر من قريش إلى جُدَّة فابتاعوا خشب السفينة وكلموا باقوم الرومىّ أن يقدم معهم إلى مكة، فقدم إليها وأخذوا أخشاب السفينة أعدّوها لسقف الكعبة المشرفة.

قال الأَموِىُّ: كانت هذه السفينة لقَيْصَر ملك الروم يحمل فيها الرخام والخشب والحديد مع باقوم إلى الكنيسة التى أحرقها الفرس بالحَبَشَة، فلمّا بلغت قريب مَرْسَى جُدَّة بعث الله عليها ريحًا فحطَمَتْها. انتهى.

قلتُ: لا تُعْرَفُ طريق بين بحر الروم والحبشة يمرّ فيها على جُدَّة إلا أن يكون ملك الروم طلب ذلك من ملك مصر فجهَّزها له من بَنْدَر السُّوَيْس أو الطُّور أو نحو ذلك.

قال ابن إسحاق: وكان بمكّة قبطى يعرف نَجْرَ الخشب وتسويته، فوافقهم أن يعمل لهم سقف الكعبة ويساعده باقوم، قال: وكانت حَيَّة عظيمة تخرج من بئر الكعبة التى يُطْرَحُ فيها ما يُهْدَى إلى الكعبة تشرف على جدار الكعبة لا يدنو منها أحدٌ إلا كَشَّتْ وفتحَتْ فاها، وكانوا يهابونها ويزعمون أنها تحفظ الكعبة وهداياها، وأن رأسها كرأس الجَدْى وظهرها وبطنها أسود وأنها أقامت فيها خمسمائة سنة[1].

وقال ابن عقبة[2]: فبعث الله تعالى طائرًا فاختطفها وذهب بها، فقالت قريش: نرجو أن يكون الله تعالى رضى لنا بما أَرَدْنا فِعْلَهُ، فأجمع رأيُهم على هدمها وبنائها.

قال ابن هشام: فتقدّم عائذ بن عِمْرَان بن مخزوم وهو خال أبى النبى ﷺ فتناول حجرًا من الكعبة فوثب من يده حتى رجع إلى مكانه، فقال: يا معشر قريش، لا تدخلوا فى بنيانها من مالكم إلا حلالاً طيبًا ليس فيه مَهْر بغىّ ولا رِبًا ولا مظلمة[3].

(١) فى ل: «ابن عيينة»، وفى م: «ابن عتبة»، والمثبت لدى الصالحى وابن كثير.
(٢) ابن هشام ١/ ١٩٣.
(٣) ابن هشام ١/ ١٩٤.

ثم إن قريشًا اقتسمت جوانب البيت، فكان شقُّ الباب لبنى زُهْرة وبنى عبد مناف، وما بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم، ومن انضمّ إليهم من قريش، وكان ظهر الكعبة لبنى جُمَحَ وبنى سَهْم، وكان شقُّ الحِجْر لبنى عبد الدار وبنى أسد بن عبد العُزَّى وبنى عدىّ بن كعب[1].

وجمعوا الحجارة وكان رسول الله ﷺ ينقل معهم حتى إذا انتهى الهدم إلى الأساس فأفْضوا إلى حجارة خُضْر كالأَسْنِمَة فضربوا عليها بالمِعْوَلِ فخرج برق كاد أن يخطف البصر فانتهوا عند ذلك الأساس، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن، فاختصم فيه القبائل كلُّ قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه وكادوا أن يقتتلوا على ذلك، فقال لهم أبو أُمَيَّة بن المغيرة بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم وكان شريفًا مطاعًا، اجعلوا الحكم بينكم فيما اختلفتم فيه أوّلَ من يدخل من باب الصَّفَا فقبلوا منه ذلك، فكان أول داخل رسول الله ﷺ، فلمّا رأَوْه قالوا هذا مُحَمَّدٌ الأَمِينُ وكان يُسَمَّى قبل أن يُوحَى إليه أمينًا لأمانته وصدقه، فقالوا جميعًا: رضينا بحُكْمه ثم قَصُّوا عليه قِصَّتَهم فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: هَلُمَّ إلىَّ ثوبًا فأُتِىَ به فأخذ الركن فوضعه بيده فيه، ثم قال: ليأخذ كبير كلّ قبيلة بطرف من هذا الثوب فحملوه جميعًا وأتوا به ورفعوه إلى ما يحاذى موضعه فتناوله رسول الله ﷺ من الثوب ووضعه بيده الشريفة فى محلّه[2]، وفى ذلك يقول هُبَيْرة بن أبى وهب المخزومىُّ:

تَشَاجَرَت الأحياء فى فَصْل خُطَّة ... جَرَتْ طيرهم بالنَّحْس من بعد أَسْعَدِ
تلاقوا بها بالبُغْض بعد مَوَدَّة ... وأَوْقَدَ نارًا بينهم شرّ مُوقِدِ
فلمّا رأَينا الأمر قد جَدَّ جدُّه ... ولم يَبْقَ شىء غير سَلِّ المُهَنَّدِ
رضينا وقُلْنا العَدْل أَوَّلُ طالعٍ ... يجىء من البَطْحاء من غير مَوْعد
ففَاجَأَنا هذا الأمينُ مُحَمَّدٌ ... فقُلْنا رضينا بالأمين محمّد

(١) ابن هشام ١/ ١٩٥.
(٢) ابن هشام ١/ ١٩٦ ـ ١٩٧.

بخير قريش كلها أمْسَ شيمة ... وفى اليوم مَهْمَا يحدث الله فى غَد
فجاء بأمْرٍ لم يَرَ الناسُ مثْلَه ... أعمّ وأرْضَى فى العَواقب واليد
أخَذْنا بأطْراف الرِّداء وكُلُّنا ... له حصَّةٌ مِنْ رَفْعِها قبضة اليد
فقال ارفعوا حتى إذا ما عَلَتْ به ... أكُفُّهم وافى به خير مسند
وكُلٌّ رضينا فعله وصنيعه ... فأعظم به من رأى هادٍ ومهتد
وتلك يدٌ منه علينا عظيمة ... يروح بها هذا الزمان ويغتدى[1]

ولَما بَنَتْ قريش الكعبة جعلَتْ ارتفاعها من خارجها ثمانية عشر ذراعًا، منها تسعة أذرع زائدة على ما عمّره الخليل - عليه السلام - ونقصوا من عرضها أذرعًا من جهة الحِجر لقصر النفقة الحلال التى أعدّوها لعمارة الكعبة، ورفعوا بابها عن الأرض ليُدْخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا، وجعلوا فى داخلها ست دعائم فى صفَّين ثلاث فى كل صفّ من شقِّ الحِجْر إلى الشقّ اليمانى، وجعلوا فى ركنها الشامى من داخلها درجة يصعد منها إلى سطح الكعبة المشرفة.

تنبيه: اختلف فى سنّ رسول الله ﷺ حين بَنَتْ قريش الكعبة، فقيل: كان ابن خمس وثلاثين سنة وهو أشهر الأقوال، وروِىَ عن مُجَاهد أن ذلك قبل المبعث بخمسة عشر عامًا، والذى جزم به ابن إسحاق أنه كان قبل المبعث بخمس سنين، والله أعلم.

• **التاسع: بناء سيدنا عبد الله بن الزبير للكعبة الشريفة فى زمن الإسلام:**

وسيأتى تفصيل ذكره وما وقع له فى الباب الثالث فى بيان ما كان عليه وضع المسجد الحرام فى أيام الجاهلية وصدر الإسلام إن شاء الله.

• **العاشر: بناء الحجاج بن يوسف الثقفى بعد بناء سيّدنا عبد الله بن الزبير:**

وسيأتى بيانه عقب ذكر بناء عبد الله بن الزبير للكعبة إن شاء الله تعالى، وبناء الحجاج هو جهة الميزاب والحِجْر - بسكون الجيم - وتعلية جوف الكعبة

(١) منائح الكرم ١/ ٤٥٧.

ورفع الباب الشريف الذى فى لصق المُلْتَزِم وسدّ الباب الغربى الذى بلصق المستجار لا غير، وما عَدَا ذلك فى الجهات الثلاث وهو وجه الكعبة الشريفة وجهة ظهرها وما بين الركن اليمانى والحجر الأسود فهو بناء سيّدنا عبد الله ابن الزبير باقٍ إلىٰ الآن كما سنذكره فى زيادة عبد الله بن الزبير فى المسجد الحرام وهدمه للكعبة وبنائها على قواعد إبراهيم.

* * *

فصل فى تحلية الكعبة الشريفة وبابها الشريف بالذهب والفضة وقناديلها الشريفة

قال أبو الوليد الأزرقى ـ رحمه الله تعالى ـ:

أول من حلَّى الكعبة الشريفة فى الجاهلية عبد المطّلب جدُّ النبىّ ﷺ بالغزالَتَيْن الذهب اللتيْن وجدهما فى بئر زمزم حين حفرها، ثم قال: وأول من ذهب البيت فى الإسلام عبد الملك بن مروان[1].

وقال المسبحى ما يقتضى خلاف ذلك فقال: أول من حلّى البيت عبد الله ابن الزبير، جعل على الكعبة وأساطينها صفائح الذهب وجعل مفاتيحها من الذهب[2].

وذكر الفاكهى ـ رحمه الله ـ أن الوليد بن عبد الملك جعل الذهب على ميزاب الكعبة.

وذكر الأزرقى أن الوليد بن عبد الملك بعث إلى وَالِيه على مكة خالد بن عبد الله القَسْرى بستّة وثلاثين ألف دينار يضرب منها على باب[3] الكعبة

(١) شفاء الغرام ١/ ١٨٥.

(٢) شفاء الغرام ١/ ١٨٦.

(٣) فى ل: «بابى» ومثله لدى الأزرقى، والمثبت من م، ومثله فى العقد الثمين ٧/ ٣٩٠.

صفائح الذهب، وعلى ميزاب الكعبة، وعلى الأساطين التى فى جوف الكعبة وعلى أركانها من داخل[١].

وذكر الأزرقى أن الأمين بن هارون الرشيد أرسل إلى عامله على مكة سالم بن الحجّاج بثمانية عشر ألف دينار ليضرب بها صفائح الذهب على باب الكعبة، فقَلَعَ ما كان على الباب من الصفائح وزاد عليها الثمانية عشر ألف دينار فضربها صفائح استمرّت على الباب وجعل مسامیرها وحلقتى الباب وأعتَابَهُ من الذهب[٢].

وذكر أيضًا أن حَجَبَةَ الكعبة أرسلوا إلى المُتَوَكِّل العبّاسى يذكرون له أن زاويتَيْن من روايا الكعبة من داخلها مصفّح بالذهب وزاويَتَيْن مصفّح باللفضّة، والأحسن أن يكون كلُّها ذهبًا، فأرسل المتوكّل إلى إسحاق بن سلمة الصايغ بذهب وأمره بعمل ذلك، فكسر إسحاق تلك الزوايا وأعادها من الذهب وعمل منطَقَةً من فضّة ركّبها فوق إزَار الكعبة من داخلها عرضُها ثُلُثَا ذراع، وجعل لها طَوْقًا من الذهب مُتَّصلاً بهذه المنطقة، قال: وكان أسفل الباب عَتَبَةٌ من خشب الساج، قد رَثَّتْ وتَأَكَّلَتْ فأبْدَلَها بخشب آخر وألْبَسَه صفائح من فضّة، قال إسحاق الصائغ: فكان مجموع الزوايا والطوق الذهب ثمانية آلاف مثقال ومنطقة الفضة، وما على الباب من الفضة وما حُلِّىَ به المقامُ من الفضة سبعين ألف درهم[٣].

وذكر السيّد القاضى تقى الدين الفاسىُّ ـ رحمه الله ـ ما وقع بعد الأزرقى من تحلية البيت الشريف، فقال: من ذلك أن الحجبة كتبوا إلى المعتضد العباسىّ أن بعض وُلاة مكة قلع أيام الفتنة عضادَتَى باب الكعبة وغيرها وسَبَكَها دنانير وأصْرَفَها على دفع الفتنة، فأمر المعتضد بإعادة ذلك جميعه فأعيدت كما أشار به، قال ومن ذلك أن أُمَّ المقتدر الخليفة العباسى أمرت

(١) الأزرقى ١/ ٢١١.

(٢) الأزرقى ١/ ٢١٢.

(٣) الأزرقى ١/ ٣٠٠ وما بعدها.

غُلاَمَها لُؤْلُؤًا أن يُلَبِّس جميع أسطوانات البيت الشريف ذهبًا ففعل ذلك فى سنة عشر وثلاثمائة[١].

قال: ومن ذلك أن الوزير جمال الدين محمَد بن على بن منصور المعروف بالجواد وزير صاحب مصر أنفذ فى سنة تسع وأربعين وخمسمائة حاجبه إلى مكة ومعه خمسة آلاف دينار ليعمل بها صفائح الذهب والفضة فى أركان الكعبة من داخلها[٢].

قال: وممّن حَلاَّها الملك المظفّر الغَسَّانى صاحب اليمن، وحلاّها حفيدُه الملك المجاهد صاحب اليمن أيضًا، ثم إن الملك الناصر محمّد بن قلاوون الصالحى صاحب مصر حلّى باب الكعبة الذى عمله لها بخمسة وثلاثين آلف درهم، وأن حفيده الملك الأشرف شَعْبان حلّى باب الكعبة فى سنة ست وسبعين وسبعمائة[٣]. انتهى ما ذكره التقى الفاسى.

قلتُ: وقد أدركنا الباب الشريف مصفّحًا بالفضة، وكان يختلس من فضته أوقات الغفلة من قلّ دينه وخفّت يده، إلى أن انكشف سُفل الباب الشريف عن خشب الباب، ومُسك مراراً من يفعل ذلك وحُبِسُوا وبُهْدِلُوا، فعرض ذلك على الأبواب الشريفة السلطانية فى أيام المرحوم المقدّس السلطان سليمان خان، أسكنه الله تعالى فراديس الجنان، فى سنة إحدى وستين وتسعمائة[٤].

فبرز الأمر الشريف السلطانى بتصفيح الباب الشريف بالفضة إلى ناظر الحرم الشريف المقيم بمكة فى مَنْصب نظارة الحرم الشريف يومئذٍ وهو من فضلاء كَتَبَةِ مِصْرَ أحمد چلبى المقاطعجى صِهْر المرحوم محمّد بن سلميان دَفْتَردار مصر إذ ذاك، رحمه الله تعالى، وكان له شِعر لطيف بالتُّرْكِىّ،

(١) شفاء الغرام ١/ ١٨٨.

(٢) شفاء الغرام ١/ ١٨٨.

(٣) شفاء الغرام ١/ ١٨٨.

(٤) إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام ص٥٥.

وتَرْجَمَ باللسان التركى كتابَ روضة الشهداء لمولانا جامى وضمنه من لطائف النظم والنثر ما يستحسنه الطَّبع، ومن مَحَاسن السَّجْع ما يخفّ على السَّمْع، وهو كتاب مقبول متداول بين اللُّطَفاء، وكان وُصُولُه إلى مكة فى افتتاح سنة ثمان وخمسين وتسعمائة[١].

وكان فى البيت الشريف خشبة من أخشاب سقفه المنيف انكسرت، وصار الماء ينزل من موضع الكسر إلى جوف البيت المعظم، وكان قاضى مصر يومئذ قُدْوَة علماء الموالى العظام مولانا حامد أفندى وهو اليوم مفتى ممالك الإسلام بالباب العالى أطال الله عمره المديد، وأدام بقاءه السعيد، قد حجّ إلى بلد الله الحرام وقاضى مكة يومئذ الأفندى المرحوم مولانا محمّد بن محمود المعروف بخواجه قَيْنى أسكنهما الله تعالى فسيح الجنان، وحفّ تربتَهُ بالروح والريحان، فاطَّلَعَا على هذا الاختلال وعرضاه على الأبواب الشريفة السلطانية[٢].

فلمّا وصل العرض إلى المرحوم المقدّس المغفور له الأقدس السلطان سليمانُ خان، بَوَّأَهُ الله غرف الجنان، أرسل إلى مفتى الإسلام سلطان العلماء الأعلام مولانا أبى السُّعُود أفندى المفتى الأعظم قدّس الله تعالى روحَه يَسْتَفْتيه عن حُكْم الله تعالى فى هذه المسألة جَوَاز أو عَدَم جواز، فكتب إليه يَجُوز ذلك إن دَعَت الضرورة إليه.

فأرسل بجواب المفتى الأعظم إلى صاحب مصر يومئذ الوزير المعظم المرحوم على باشا، فأرسله الوزير المذكور إلى ناظر الحرم المشار إليه وقاضى مكة يومئذ مع أمر شريف سلطانى مضمونه العمل بمقتضى الفتوى.

فجمع أحمدُ جلبى مُؤن العمارة والأخشاب اللائقة بهذا العمل، وكان كاتبه صولق مُصْطَفى جلبى ومعماره مصطفى المعمار، وقبل الشروع فى

(١) إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام ص٥٥.

(٢) إعلام العلماء ص٥٥.

العمل اقتضى رأيُهم مشاورة العلماء فى ذلك.

فجلس مولانا الأفندى محمد بن محمود بن كمال بعد صلاة الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة تسع وخمسين وتسعمائة فى الحرم الشريف، واستحضر مفتى العلماء الشافعية المرحوم مولانا الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر الهَيْتَمى ومولانا الشيخ نُور الدين على بن إبراهيم العُسَيْلى، ومولانا القاضى يحيى بن فائز ابن ظهيرة، ومؤلف هذا الكتاب وتفاوضوا فى هذه المسألة، فذكر مصطفى المعمار أنه شاهد عُودَيْن من أعْوَاد سقف الكعبة مكسورَين نزلا عن محاذاة بقية أخشاب السقف الشريف من وسطهما مقدار اثنى عشر قيراطًا، وذكر أن عودًا ثالثًا إلى جانبهما لنحو الباب الشريف نزل أيضًا تسعة أصابع عن محاذاة أعواد السقف الصحيحة هُبُوطًا إلى أسفل فإنه يحتمل أن يكون مكسورًا أيضًا ويحتمل أن يكون صحيحًا، لكنه اعوجّ باعوجاج ما إلى جانبه من العود المكسور، وشهد معه المعلم أحمد الحُمَيْماتى المصرى وغيره[1].

وذكروا بأنه إن لم يتدارك تغيير الخشب المكسور بخشب صحيح فالغالب فى أمثال ذلك أن يسقط إلى أسفل وتزعزع الجُدران بسُقوطه، ويغلب فى الظنّ اختلال فى جوانب السطح يُؤَدى إلى سُقُوط السقف جميعه وتشقُّق الجدران أو سقوطها، فاتَّفقت آراء الحاضرين على الإقدام على تعمير السطح وتبديل تلك الأعواد، وعيّنوا أن يشرعوا صُبْح يوم السبت منتصف شهر ربيع الأول سنة تسع وخمسين وتسعمائة، فتعصّبت طائفة حرّكهم الهَوَى والغرض لمخالفة ما رأيناه صَوَابًا وحرّكوا طائفة من العلماء إلى الخلاف، وزعموا أن من تعظيم البيت الشريف أن لا يتعرّض له بترميم ولا إصلاح وأن قيام الكعبة الشريفة هذه المُدَّة المديدة والرياح تنسفها من الجوانب الأربعة ولا يُؤثر فيها دليل على أن قيامها ليس بقوّة البناء بل هى قائمة بقدرة الله تعالى، وأنه لا يجوز تغيير أخشابها إلاّ إذا سقطت بنفسها وغير ذلك من التَّمْوِيهات

(١) إعلام العلماء ص٥٥ ـ ٥٦.

والتَّهْويلات التى تَنْبُو عن مَسامع العقلاء، وعوّلوا الأمر على عوامّ الناس وغوغائهم، وكادت أن تقوم لذلك فتنة من العوام.

وكتب مولانا الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر تأليفًا واسعًا فى الردّ على أولئك المعاندين واستَنَد إلى نُقُول كثيرة وصمّم على الجواز، وجاءنى رحمه الله يُحَرّضنى على الثبات على ما صَدَرَ منّى من القول بالجواز، ونقل لى عن المحبّ الطبرىّ فى كتابه استقصاء البيان فى مسألة الشاذروان بعد ذكره حديث عائشة رضى الله عنها فى هدم الكعبة ما نَصّه ومدلول هذا الحديث تصريحًا وتلويحًا أنه يجوز التغيير فى الكعبة لَمَصْلَحة ضرورية أو حاجة مستحسنة. انتهى.

ولمّا بلغ سيّدنا ومولانا المقام الشريف العالى السيّد الشريف شهاب الدين أحمد بن أبى نُمَىّ صاحب مكة إذ ذاك تغمّده الله تعالى برضوانه، وأسكنه فسيح جناته، حضر بنفسه من البرّ إلى مكة المشرفة وطلب سيّدنا سلطان العلماء الأعلام شيخ الإسلام شمس الملّة والدين الشيخ محمّد بن مولانا الشيخ أبى الحسن البكرى نفع الله به وبأسلافه الكرام، وشيّد به أزر شريعة سيّد الأنام، عليه أفضل الصلاة والسلام، ومولانا الأَفْنَدَى الأعظم قاضى مكة المشرفة وسيّدنا ومولانا شيخ الإسلام قاضى القضاة ومَرْجع أهل بلد الله الحرام القاضى تاج الدين عبد الوهّاب بن يعقوب المالكى طَيّب الله مَثْوَاهُ، وجعل الفردوس الأعلى مَأْوَاهُ، وناظر الحرم الشريف المكىّ يومئذ أحمد جلبى المذكور فحضروا جميعًا تجاه البيت الشريف عند مقام سيّدنا إبراهيم عليه السلام وأشير إلى سيّدنا ومولانا الشيخ الأعظم محمّد البكرى أن يُلقى دَرْسًا يتكلّم فيه على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧] فتكلّم على جَرى عادته بلسان طَلْق فصيح ولفظ منتظم مليح، أَبْهَرَ به الحاضرين وأَدْهَشَ الناظرين، وأفاد وأجاد، وقلد نفائس الدرّ الأجياد فلمّا انقضى الدرس أخْرج الناظر فتوى المفتى للناس فَرآها مولانا الشيخ الأعظم الشيخ محمد البكرى فقال: ومن

يخالف هذه من الناس؟ هذا هو عين الحقّ ومَحْض الصواب[١].

فأمر مولانا السيّد أحمد العُمَّال بالشروع فى العمل، فشرعوا وسكنت الفتنة ولله الحمد، وكلُّ ذلك كان بتدبير المرحوم القاضى تاج الدين المالكى رحمه الله، وكان عَقْلاً مُجَسَّمًا وراء صواب مَحْضًا وله فضلٌ تام، وفكرصائب تمام، توفى إلى رحمة الله تعالى فى ستة إحدى وستين وتسعمائة، ثم لمّا كشف عن تلك الأعواد فى السقف الشريف وجدوها مكسورة كما ظنّوا فأبدلوها بأعْواد جيّدة فى غاية الإحكام والاستقامة، وأعادوا السقف والسطح كما كان بغاية الإتقان، وسُطِّرَ ثواب ذلك فى صحائف المرحوم السلطان سليمان، عليه الرحمة والرضوان[٢].

ثم بعد الفراغ طلبوا منّا شيئًا بمكن كتابته فكتبتُ لهم كلامًا يتضمّن التاريخ وهو:

الحمدُ لله الذى عمّر الكعبة الشريفة بالشرائع المحمّدية فعمرت، وهى البيت المعمور حسّاً ومَعْنًى، وشيّد قواعد ملك من جَدَّدَ سقفها بتشييد وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا، وأصلح الوجود بوجود من وجد فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه، وخَصَّه بكَنْز إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر، فكان له بذلك أعظم كرامَة، وأناله الحظّ الأَوْفَر من مُلك سميّه نبىّ الله سيّدنا سُلَيْمان، ابن السلطان سَليم خان، الحادى عشر من ملوك بنى عثمان، خادم الحرمَيْن الشريفَيْن، الخافقة أَلْوِيَة نَصْره ورايات ظفره فى الخافقَيْن، فلقد جَدَّدَ سقف الكعبة المعظمة حفظ الله دولته حفظ البيت المعمور والسقف المرفوع، وأصلح أرضها المقدّسة وجدارها المتّخذة قبلةً للسجود والركوع، وغرد طيرُ تاريخ تجديد عمارته على غُصُون حساب أبجد فكان.

* * *

(١) إعلام العلماء ص٥٦.

(٢) إعلام العلماء ص٥٦.

مجدد سطح بيت الله مالك الدول سليمان

ملّكه الله الأرض ومن عليها، وجعل باب سعادته قبلةً تسجد جِبَاهُ المطالبِ إليها

ثم لمّا فرغ من تجديد سطح البيت الشريف وما يتعلق به شرع فى تسوية فرش المطاف الشريف فإن أحجاره انفصلَتْ وصار بين كل حجرين[1] حُفَرٌ وكانت تلك الحفر تُسَدُّ تارةً بالنورة وتُدْلَكُ وتارة بالرصاص وتسمّر بمسامير الحديد، فأزال ما بين الأحجار من الحفر ونَحَتَ طرف الحجر إلى أن ألصقه بطرف الحجر الآخر من جوانبه الأربعة، واستمرّ فى فرش المطاف الشريف[2] على هذا الأسلوب إلى أن فرغ من ذلك، وأصلح أبواب المسجد الشريف وفرش المسجد جميعه بالجصّ، ثم ورد الحكم السلطانى السليمانى بتصفيح الباب الشريف بالفضة، فأخرجوا جميع فضة الباب وزادوا عليها فضة وجُعلت صفائح وصُفِّحَ بها باب الكعبة الشريفة وسُمّرت الصفائح بمسامير الفضة، وأُعيدَت الحلقات الأربع على الباب الشريف، وأصلح الميزاب الشريف وصُفّح بالفضة المموّهة بالذهب إلى أن غُيِّرَ بعد ذلك، وعُمل الميزاب فى الباب السلطانى مصفّحًا بالذهب، وأرسل إلى هُنا فوضع موضع الميزَاب الذى كان فى الكعبة وجُهِّزَ إلى الباب الخاقانى فوصل ووُضع فى الخزانة العامرة[3].

وأمّا عمارة المَطاف الشريف فوقَعتْ فى سنة إحدى وستين وتسعمائة وكنت قد أُمِرْتُ بتاريخ يُكْتب على بعض مواضع المطاف، فكتبتُ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾

(١) كذا فى م، ومثله فى إعلام العلماء ص٥٦، وفى ل: «حجرَتَيْن».

(٢) كذا فى م، ومثله فى إعلام العلماء. وفى ل «السعيد».

(٣) إعلام العلماء ص٥٧.

فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧] تقرّب إلى الله تعالى بتجديد فرش أحجار المطاف، وتسويتها تحت أقدام الطائفين فى الطواف، وتحلية الباب الشريف، والميزاب المعظم المنيف، خليفة الله الأعظم، سلطان الروم والعرب والعجم، من اصطفاه الله تعالى واجتباه لترميم بيته الحرام، واختاره وارتضاه لخدمة الركن والمقام، السلطان ابن السلطان ابن السلطان، الملك المظفر أبو الفتوحات سليمان خان، تقبّل الله منه صالح الأعمال، وبلّغه ما يُؤَمّله من السعادة والإقبال، ولمّا تمّ ذلك غرّد بالتاريخ طيرُ الهنَاء عمّر اللهُ قبلتَنَا.

* * *

فصل فى ذكر معاليق قبلتنا المعظمة وكسوتها

أما المعاليق، فقال المسعودى رحمه الله تعالى فى مروج الذهب: كانت الفُرس تهدى إلى الكعبة أموالاً وجواهرَ فى الزمان الأول، وكان ساسان بن بابك أَهْدَى غزالتَيْن من ذهب وجواهر وسيوفًا وذهبًا كثيراً إلى الكعبة[1].

وقال الشريف التقى الفاسى فى شفاء الغرام يقال: إن كِلاَب بن مُرَّة بن كعب بن لُؤى بن غالب بن فِهْر بن مالك بن النَّضْر بن كِنانة القُرَشىّ أول من علّق فى الكعبة السيوف المحلاّة بالذهب والفضة ذخيرةً للكعبة[2].

ثم نقل عن الأزرقى أشياء أُهْدِيَتْ إلى الكعبة منها أن أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه لمّا فتح مَدَائن كِسْرَى، كان ممّا أُهْدى إليه هلالان، فبعث بهما فعلّقهما فى الكعبة، وبعث السفّاح بالصفيحة الخضراء فعُلقت فى الكعبة، وبعث المأمون بالياقوتة التى تعلّق فى كل موسم بسلسلة من الذهب

(١) مروج الذهب ١/ ٢٤٢.

(٢) شفاء الغرام ١/ ١٨٩.

فى وجه الكعبة، وبعث المتوكل على الله بشمسة من ذهب مكلّلة بالدُّرّ الفاخر والياقوت الرفيع والزبرجد تعلّق بسلسلة من الذهب فى وجه البيت فى كل موسم[١].

وأَهْدَى المعتصم العبّاسى قفلاً لباب الكعبة فيه ألف مثقال ذهبًا فى سنة تسع عشرة ومائتين، وكان والى مكة يومئذ من قبله صالح بن العبّاس، فأرسل إلى الحَجَبَة ليُقبضَهم القفل فأبوا أن يأخذوه منه، وأراد أن يأخذ القفل الأول ويرسل به إلى الخليفة فأبوا أن يُعطوه ذلك، وتوجّهوا إلى بغداد وتكلّموا مع المعتصم فترك قفل الكعبة عليها وأعطاهم القفل الذى كان بعثه إليها فاقتسموه بينهم[٢].

وذكر الفاكهى أن ممّا أُهْدى إلى الكعبة طَوْق من ذهب مكلّل بالزمرّد والياقوت مع ياقوتة كبيرة خضراء، أرسله ملك السند لمّا أسلم فى سنة تسع وخمسين ومائتين فعرض أمره على المعتمد على الله فأمر بتعليقها فى البيت الشريف فعُلّقت[٣].

قال الشريف التقى الفاسىُّ رحمه الله: وممّا عُلق بعد الأزرقى قصبة من فضة فيها كتاب بيعة جعفر بن أمير المؤمنين المعتمد على الله، وبيعة أبى أحمد الموفّق بالله ابن أخى المعتمد على الله، قدم بها الفضل بن العبّاس فى موسم سنة إحدى وستين ومائتين، وكان وزن القصبة ثلاثمائة وستّين درهمًا فضة، وعليها خارجًا عن ذلك ثلاثة أزرار بثلاث سلاسل من فضة ودخل الكعبة يوم الاثنين لأربع ليال خلون من صفر فعلّق هذه القصة مع معاليق الكعبة[٤].

قلتُ: وسيأتى أن هارون الرشيد كتب أن يكون ولىّ عهده بعده محمّد

(١) الأزرقى ١/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥.
(٢) شفاء الغرام ١/ ١٩٠.
(٣) شفاء الغرام ١/ ١٩٠.
(٤) شفاء الغرام ١/ ١٩١.

الأمين، ثم عبد الله المأمون وبايع لهما على ذلك أعيانُ مملكته وكتب مُبايعتهم وأرسل نسخة ذلك العهد وعلقها فى الكعبة، ثم لمّا وقع بعده الاختلاف بينهما وأرسل الأمين عسكراً لقتال أخيه المأمون أرسل إلى مكة وأخرج كتاب العهد من الكعبة ومزّقه، فمزّق الله تعالى ملكه وانكسر عسكره وانتصر المأمون وجاء إلى بغداد وحاصر الأمين، إلى أن أمسكه عبد الله بن طاهر وقتله وأتى برأسه إلى المأمون، وسيأتى تفصيل ذلك جميعه إن شاء الله تعالى.

ثم لمّا وقعت الفتنُ بمكة أُخِذتْ تلك المعاليق من الكعبة وصُرِفتْ فى ذلك، وقد كانت الملوك تُرْسل بقناديل الذهب وتعلّق فى الكعبة، وكانت شيوخ سدنة البيت الشريف إذا احتاجت اختلسَت منها ما تسدّ به خَلَلها وتدفع بها فقرها واحتياجها.

وقد أدركنا فى أيام الصبا وقد خَفَّت القناديل وأدركنا من شيوخ الكعبة من كان يتّهم بذلك، بل أخبرنى نجّارٌ أنه عمل لأحدهم محطًّا مركّبًا من الخشب مُؤلَّفًا من عدّة أعواد طوال كلّ واحد منها نحو ذراع تركّب فتطول ثم تُفَكُّ وتُحْمَل فى الكُمّ، فإذا دخل الشيخ يوم فتح الكعبة ابتدأ فدخل وحده كما هو عادة مشايخ الكعبةُ، وركب ذلك المحطَّ ونزَل قنديلاً وفك تلك الأعواد وعفس ذلك القنديل ووضعه فى كُمّه الواسع، ثم أذن للناس بالدخول إلى البيت الشريف، وما كان يحمله على ذلك غير فقره واحتياجه تجاوز الله عنه.

وافتقد مرة أميرٌ من أمراء جُدَّة قنديلاً كان عُلّق قريبًا فى البيت الشريف، فكلّم على ذلك الشيخ وأراد إهانته فلم يقدر على ذلك، فتكلّم الناس عليه، وكان يقول المحافظة على بِنْيَة الإنسان أوجبُ من المحافظة على قناديل معلّقة فى الكعبة لا ينفعها تعليقها ولا يضرّها فقدها، وقد وصلنا الآن إلى حدّ المخْمَصَة فنُعذر فى ذلك إن وقع فعله منّا، والبيت الشريف الآن ولله الحمد والشكر فى غاية الصون فى أيام هذا الشيخ الموجود الآن لِعفَّته وأمانته، عُلّقت فى أيامه قناديل كثيرة أهداها الملوك إلى الكعبة الشريفة وهى محفوظة

معلومة عند الناس باقية يَرَوْنها فى سقف البيت الشريف أوقات فتح الكعبة لسائر الناس.

وقد وصل فى وسط سنة أربع وثمانين وتسعمائة من الباب الشريف العالى السلطانى جاوش اسمه محمّد جاوش كان قبل ذلك كاتبًا للحرم الشريف على عمارة المسجد الحرام، وكان توجّه ببشارة إتمام عمل المسجد الشريف إلى الباب العالى السلطانى وهو رجل فى غاية الأمانة والاستقامة وحُسن الخدمة وفضيلة الكتابة وحُسن الخطّ والمُروّة وعُلُوّ الهِمّة سلّمه الله تعالى، فأقبلت عليه السلطنة نصرها الله تعالى، وأنْعمت عليه بأنواع الإنعام والترقّى وغير ذلك من الإكرام، وأدخل فى عداد خواصّ جاوشية الباب العالى.

وأُرْسل إلى الحرمَيْن الشريفَيْن بالخلع الشريفة السلطانية لمن باشر خدمة الحرم الشريف فى هذه العمارة أجلهم سيّدُنا ومولانا المقام الشريف العالى سيّد السادات الأشراف، وصَفْوَةُ الصَّفْوَةِ من شُرَفاء بنى عبد مناف، السيد الشريف الحسيب النسيب، المستغنى بشرف ذاته عن التوصيف والتلقيب، بَدْرُ الدُّنْيا والدين مولانا السيد حسن بن أبى نُمَىّ خلد الله تعالى دولتهما وسعادتهما، ودام عِزّهما وسيادتهما، وكذلك شيخ مشايخ الإسلام، سيّد العلماء الأعلام، وسَنَدُ الفضلاء الكرام، ناظر المسجد الحرام، ومدّرس أعظم مدارس أعظم سلاطين الأنام، صَفْوَةُ نُخْبَة آل سيد المرسلين عليه وعليهم أفضلُ الصلاة والسلام، وقاضى المدينة المنوّرة سابقًا بدر الملّة والدين، مولانا السيد حُسَيْن الحُسَيْنى المكّىّ المكين، لا زال حرم الله الأمين، مشمولاً فى أيّام نظارته بالعزّ والتمكين، وأهل الحرَمَيْن الشريفَيْن غارقين، فى بحر إحسانه فى كل وقت وحين، وكذلك لقاضى مكة المشرفة يومئذ أقضى قُضاة المسلمين، أوْلَى وُلاة الموحّدين، مَعْدَن الفضل واليقين، وارث علوم الأنبياء والمرسلين، مولانا مُصْلِح الدين لُطْفى بك زاده، ذكّره الله تعالى بالصالحات، وأفاض عليه سوابغ الخيرات، وكذلك لأمين العمارة الشريفة افتخار الأمراء

العظام، معمّر المسجد الحرام، الأمير أحمد وفّقه الله تعالى وسدّد، وأكرمه وأسعد، وجهزت السلطنة الشريفة نصر الله تعالى بها الإسلام، وأيَّدَ بتأييدها دين سيّدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، مع الجاوش المشار إليه ثلاثة قناديل من ذهب مُرَصَّعة بالجواهر ليعلّق اثنان منها فى سقف بيت الله تعالى زاده الله تشريفًا وتعظيمًا، والثالث فى الحُجْرة الشريفة النبوية تجاه الوجه الشريف النبوى تعظيمًا لسيد الأنام.

وعلى ذلك الوجه المليح تحيَّةٌ مُبَارَكَـــةٌ من ربّنا وسَلَام

فلمّا وصل محمد جاوش إلى مكة المشرفة شرّفها الله تعالى بما فى يده من الخلع والتشاريف والقناديل المعظمة قُوبل بغاية التعظيم والإجلال، وعُومل بنهاية الاحترام والإقبال، وأُلْبِسَ الخلع الشريفة الفاخرة، وأُنْعِمَ عليه بالضيافات والإنعامات الوافرة، وحضر إلى المسجد الحرام بنفسه النفيسة سيدنا ومولانا المقام الشريف العالى السيد حسن المشار إلى حضرته العالية، أدام الله تعالى عزّه وإقباله، ومعه أكابر السادة الأشراف، وجلس فى الحطيم الكريم تجاه بيت الله المنيف، ومعه سيدنا ومولانا ناظر حرم الله تعالى شيخ مشايخ الإسلام السيد القاضى حُسَيْن الحُسَيْنى المُومَى إليه، خلّد الله عظمته وإجلاله عليه، وباقى من ذكرنا وسائر الأعيان والأهالى، وكافة العلماء والفقهاء والموالى، واجتمعت الناس حول الكعبة الشريفة وامتلأ الحرم الشريف، بذلك الموكب المنيف.

وفتح بيت الله تعالى وأحضرت الخلع الشريفة السلطانية، والقناديل السَّنِيَّة الخاقانية، وقُرئت المراسيم الشريفة المطاعة فى الأقطار والجهات فوق منبر لطيف بصَوْت جَهْوَرِىّ يسمعه الخاصّ والعامّ وأُلْبِسَ سيدنا ومولانا السيد حسن نصره الله تعالى خلعتَيْن فاخرتَيْن، ثم مولانا ناظر الحرم الشريف، ثم من كان له خلعة من السلطنة، ثم طاف سيدنا ومولانا السيد حسن بالبيت بخلعتَيْه على المعتاد والرئيس المؤذن يدعو للسلطنة الشريفة وله بعُلُوّ زمزم على العادة، والناس كلّهم رافعون أكُفَّهم بالدُّعاء والتَّأمين إلى أن فرغ سيدنا

ومولانا من الطواف ودعا بالمُلْتَزَم الشريف، ثم صلّى ركعتى الطَّوَاف فى مقام إبراهيم.

ثم طلع هو ومولانا ناظر الحرم الشريف وبقية الأعيان إلى باب بيت الله تعالى ودخلوا الكعبة وأُحضرت القناديل الشريفة واختاروا لها مكانًا عاليًا يقَع نظر الداخل إلى البيت الشريف فى أول دخوله إلى الكعبة المعظمة عليها، وأُحْضر سُلَّمٌ يُصْعَد عليه فعلّقهما سيدنا ومولانا السيد حسن بيده الشريفة تعظيمًا لأمر السلطنة العالية المنيفة وقُرِئَت الفواتح فى الكعبة الشريفة وحولها، ودَعَت الناس أجمعون، ورفعت أصواتهم وهم إلى الله تعالى يتضرّعون بدَوَام دولة هذا السلطان الأعظم، سلطان سلاطين العالم، خلّد الله تعالى خلافته الزاهرة، وأبّد أيام سلطنته القاهرة، وجمع له بين سعادتى الدُّنيا والآخرة.

ثم انفضّ ذلك المجلس العظيم، وانقضى ذلك الموكب الشريف الوسيم، وكان يومًا شريفًا مشهودًا، ووقتًا مباركًا متيّمنًا مسعودًا، رقَّمْته الليالى والأيام فى صفحات أوراقها، وأثبتَتْه فى جرائد دفاترها وأطباقها.

وإنّما المرء حديثٌ بعده فكُنْ حديثًا حَسَنًا لمن رَوَى

ثم توجّه محمد جاوش المذكور بالقنديل الذى بقى معه إلى المدينة المنورة، ووصل إلى تلك الروضة الشريفة المطهرة، واجتمعت له أكابر المدينة الشريفة وأعيانها، وعُلَمَاؤُها وصلحاؤُها وأركانها، وشيخ حرمها وبَوَّابها، ومن له شأن وقدر من مجاوريها وسُكَّانها، فعُمِلَ موكب شريف فى الحرم الشريف النبوىّ وفُتحت الحجرة الشريفة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وعُلّق ذلك القنديل تجاه الوجه الشريف النبوى عليه الصلاة السلام..

وقُرِئَت الفواتح وحصل الدعاء من سائر جيران سيّد الأنام، عليه أشرف التحية وأفضل السلام، بدَوَام دولة هذا السلطان العظيم الأعظم، سلطان سلاطين العالم، خلّد الله ملكه السعيد، وأبد مَعْدَلَتَهُ وفضله وإحسانه المزيد،

فالله تعالى يطيل عمره ويسعده، ويُوَفّقه للخيرات ويُرْشده، ويسوّقه إلى الباقيات الصالحات من أعمال الخير ويُسَدِّده.

وهو أول من علّق قناديل الذهب فى الحرمَيْن الشريفَيْن من سلاطين آل عثمان، خلّد الله تعالى سلطنتهم وأبّد دولتهم إلى انتهاء الزمان، وقد سبق بهذه المَنْقَبة الشريفة آباءه السلاطين العظام، وفَاقَ بهذه المزيّة الكريمة أَجْداده وأَسْلافه الكرام، لا زال فائقًا كبار سلاطين العالم وخلفائها، وراقيًا بأقْدام إقْدام عزمه هام ملوك الدنيا وعظمائها:

هو العادل الظَّلاَّم للمال والعِدَى ... خزائنُه قـــد أقفرت وديارُهَا
عليمٌ بنـــور الله ينظُرُ قلبُـــهُ ... فلم يغن أسرار القلوب استتارُهَا
به دمّر الله الصليـــب وأهـله ... به ملّة الإسلام عـــال منارُهَا
فلا زالـت الأفـلاك تجرى بنصره ... ولا زال عنـه قطبهـا ومدارُهَا

* * *

فصل فى ذكر كسوة الكعبة الشريفة قديمًا وحديثًا وحكم بيعها وشرائها والتبرك بها

ذكر الأزرقى وابن جُرَيْج رحمهما الله تعالى أن أول من كسا الكعبة الشريفة تُبَّع الحِمْيَرى من ملوك اليمن فى الجاهلية تعظيمًا لها، واسم هذا التُّبَّع أَسْعَدُ، وأنه رأى فى منامه أنه يكسو الكعبة فكساها الأَنْطَاع ثم رأى أنه يكسوها فكساها من حِبَرِ اليمن وجعل لها بابًا يُغْلَق فقال أَسْعَدُ فى ذلك:

وكسونا البيت الذى حرّم الله ... مُلاءً مُعَضَّـــــدًا وبُرُودَا
وأقمنا به مـن الشهر عشرا ... وجعلنـــا لبابِهِ إقْلِيـــــدَا
وخرجنا منه إلى حيث كُنَّا ... ورفعنـــا لواءنا معقـــودا[1]

(١) الخبر والشعر بطوله لدى الأزرقى ١/٢٤٩.

قال الأزرقى أيضًا: حدّثنى جدّى، حدّثنا سعيد بن سالم، عن ابن جريج، عن ابن أبى مُلَيْكة قال: كان يُهْدَى للكعبة هدايا شتّى من أكسية وحبر وأنماط وتُكْسَى بها الكعبة، ويُجْعَل ما بقى منها فى خزانة الكعبة، فإذا بلى شىء منها جُعل فوقه ثوب آخر ولا يُنْزَعُ مما عليها شىء، وكانت قريش فى الجاهلية تترفّد فى كسوة الكعبة فيضربون على القبائل بقدر احتمالهم من عهد قُصَىّ بن كلاب حتى نشأ أبو ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكان مثريًا يتّجر فى المال فقال لقريش: أنا أكسو الكعبة وَحْدى سنةً، وجميع قريش سنةً، فكان يفعل ذلك إلى أن مات فسَمَّته قريش العَدْلَ لأنه عَدَل قريشًا وَحْده فى كسوة البيت الشريف ويقال لبنيه بنو العَدْل[1].

وقال أيضًا: أخبرنى محمد بن يحيى عن الواقدى، عن إسماعيل بن إبراهيم بن أبى حُبَيْشة، عن أبيه، قال: كسا النبىُّ ﷺ البيت الثياب اليمانية، ثم كساه عمر وعثمان رضى الله عنهما القَبَاطى، وكان يُكْسَى الديباج بعد ذلك.

وقال أيضًا حدثنى جدّى، قال: كانت الكعبة تُكْسَى كلّ سنة كسوتَيْن، فتكسى أوّلاً الديباج قميصًا يُدْلى عليها يوم التروية ولا يخاط ويُترك الإزار حتى يذهب الحاجّ لئلاَّ يخرقوه، فإذا كان العاشوراء علّقوا عليها الإزار وأوْصلوه بالقميص الديباج فلا يزال عليها إلى يوم السابع والعشرين من شهر رمضان فيكسوها الكسوة الثانية، وهى من القَبَاطى.

فلمّا كانت أيام خلافة المأمون أمر أن تُكْسَى الكعبة ثلاث مرّات كلّ سنة فتُكْسَى الديباج الأحمر يوم التروية، وتكسى القباطى أول رجب، وتكسى الديباج الأبيض فى عيد رمضان، واستمر على ذلك، ثم أُنْهِىَ إليه أن الإزار الذى تكسى به الكعبة فى العاشوراء ويلصق بالقميص الديباج الأحمر الذى تكسى به يوم التروية لا يصبر إلى تمام السنة وأنه يحتاج إلى أن يجدّد لها إزار على عيد رمضان مع قميص الديباج الأبيض الذى تكسى به على العيد فأمر

(١) الأزرقى ١/ ٢٥١.

أن تكسى إزارًا آخر على عيد رمضان[١].

ثم بلغ المتوكل على الله أن الإزار يبلى قبل شهر رجب من كثرة مسّ أيادى الناس فزادها إزارَيْن وأمر بإسْبال قميص الديباج الأحمر إلى الأرض، ثم جعل فوقه فى كلّ شهرَيْن إزارًا وذلك فى سنة أربعين ومائتين[٢].

ثم بعد الخلفاء العبّاسيّين وأيام وهنهم وضعفهم كانت كسوة الكعبة الشريفة تارةً من قبل سلاطين مصر وتارةً من قبل سلاطين اليمن بحسب قوّتهم وضعفهم، إلى أن استقرّت الكسوة الشريفة من سلاطين مصر إلى أن اشترى السلطان الملك الصالح بن المالك الناصر بن قلاوون قريتَيْن بمصر وَقَفَهما على عمل كسوة الكعبة الشريفة اسمهما بَيْسُوس وسَنْدَبيس[٣].

ثم استمرت سلاطين مصر من بعده تُرْسل كسوة الكعبة فى كل عام، وكانوا يرسلون عند تجدُّد كلّ سلطان مع الكسوة السوداء التى تكسى من ظاهر البيت الشريف كسوة حمراء لداخل البيت الشريف وكسوة خضراء للحجرة الشريفة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، مكتوب على كل من الكسوة السوداء والحمراء والخضراء: لا إله إلا الله محمد رسول الله دالات فى قلب دالات، وقد تزاد فى حواشى تلك الدالات آيات أُخْرى متناسبة أو أسماء أصحاب رسول الله ﷺ، أو تترك ساذجة بحسب ما يُؤمر النَّسَّاج به[٤].

فلما آلت سلطنة ممالك العرب إلى سلاطين آل عثمان خلّد الله تعالى أيام سلطنتهم القاهرة ما دار الدوران، ودام الزمان، وأخذ المرحوم المقدّس السلطان سليم خان، ابن السلطان بايزيد خان، عليه الرحمة والرضوان، مملكة العرب من الجراكسة بالسيف والسِّنان، جهّزت كسوة الكعبة الشريفة

(١) إعلام العلماء ص٦١.
(٢) إعلام العلماء ص٦١.
(٣) إعلام العلماء ص٦١.
(٤) إعلام العلماء ص٦١.

داخلاً وخارجًا وكسوة المدينة الشريفة على ما جرت به العادة، وأمر باستمرار الكسوة السوداء للكعبة الشريفة على الوجه المعتاد[١].

ولمّا آلت السلطنة العظمى إلى المرحوم المغفور له السلطان سليمان خان أمر باستمرار الكسوة الشريفة على عوائدها السابقة، ثم إن قريتَىْ بَيْسُوس وسَنْدَبيس الموقوفتَيْن على كسوة الكعبة الشريفة خربتا وضَعُفَ رَيْعُهما عن الوفاء بمَصْروف الكسوة، فأمر أن يكمل من الخزائن السلطانية بمصر ثم أضاف إلى تلك القريتَيْن الموقوفتين قُرَى أُخْرى أَوْقَفَها على كسوة الكعبة الشريفة فصار وقفًا عامرًا فائضًا مستمرًا، وذلك من أعظم مزايا السلاطين العظام، الذى يفتخرون به على ملوك الأنام، ولا يَصِلُ إلى ذلك إلا أعظم السلاطين الفخام، وهى الآن من مخصوصات سلاطين آل عثمان الكرام، زيّن الله تعالَى بمزاياهم أجياد الليالى والأيام، وخلّد ذكر محاسنهم فى صفحات دفاتر الدهر إلى يوم القيامة، إن شاء الله الملك العَلاَّم[٢].

وأمَّا نَزْعُ كسوة الكعبة الشريفة وتقسيمها بين الناس، فقد ذكر الأزرقى رحمه الله، قال: حدثنى جدّى عن مسلم بن خالد، عن ابن جُرَيْج، عن أبيه أن عمر بن الخطّاب رضى الله عنه كان ينزع كسوة البيت فى كل سنة فيقسمها على الحاج[٣].

قال أيضًا: وحدثنى جدّى، حدثنا عبد الجبّار بن الورد المكىّ قال: سمعت ابن أبى مُلَيْكة يقول: كان على الكعبة الشريفة من كسوة الجاهلية ما بعضها فوق بعض، فلما كُسِيَت فى الإسلام من بيت المال خُفِّفَت عنها تلك الكساوى شيئًا فشيئًا، وكان أول من ظاهر لها كسوتَيْن أمير المؤمنين عثمان ابن عفّان رضى الله عنه، فلمّا كان أيام معاوية بن أبى سفيان كساها الديباج مع القباطى، ثم إنه بعث إليها بكسوة ديباج وقباطى وحبر وأمر شَيْبة بن

(١) إعلام العلماء ص٦٢.

(٢) إعلام العلماء ص٦٢.

(٣) الأزرقى ١/٢٥٩.

عثمان أن يجرّد الكعبة عن الكساوى ويُخَلِّقُها بالطيب ويلبّسها ما جهّزه إليه فجرّدها وطيّب جدرانها بالخَلُوق وكساها تلك الكسوة التى بعث بها معاوية، وقسم الثياب التى كانت عليها بين أهل مكة، وكان سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنه حاضراً فى المسجد الحرام، فما أنكر ذلك ولا كرهه[١].

قال وكان شيبة يكسو منها حتى رأى على امرأة حائض من كسوتها، فأنكر ذلك عليها[٢].

وقال أيضًا: حدثنى محمد بن يحيى، عن الواقدى، عن عبد الحكم بن عبد الله بن أبى فَرْوَة، عن هلال بن أسامة، عن عطاء بن يسار، قال: قدمت مكة معتمراً فجلستُ إلى عبد الله بن عباس فى صُفَّة زمزم وشيبة بن عثمان يجرّد الكعبة ورأيتُهُ يخلّق جدورها ويُطَيّبها ورأيت ثيابها التى جردها عنها قد وُضعت بالأرض، ورأيت شيبة بن عثمان يومئذ يقسمها فلم أرَ ابن عبّاس أنكر شيئًا من ذلك مما صنع شيبة بن عثمان[٣].

وقال أيضًا: حدثنى جدّى، حدثنا إبراهيم بن محمد بن أبى يحيى، حدثنا علقمة، عن أمه، عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أن شيبة بن عثمان دخل عليها وقال لها: يا أم المؤمنين، تكثر ثياب الكعبة عليها فنجردها عن خُلْقانها ونحفر لها حُفْرَةً ندفن فيها ما بلى منها كى لا تلبسها الحائض والجنب، فقالت له عائشة رضى الله عنها: ما أصبت فيما فعلتَ فلا تَعُدْ إلى ذلك، فإن ثياب الكعبة إذا نُزعت عنها لا يضرّها من لبسها من حائض، ولكن بِعْها واجْعل ثمنها فى سبيل الله وابن السبيل[٤].

ومذهب علمائنا رضى الله عنهم فى ذلك رجوع أمره إلى السلطان، وقال الإمام فخر الدين قاضى خان رحمه الله تعالى فى كتاب الوقف من فتاواه:

---

(١) الأزرقى ١/ ٢٦٠.

(٢) الأزرقى ١/ ٢٦٠.

(٣) الأزرقى ١/ ٢٦٠.

(٤) الأزرقى ١/ ٢٦١.

ديباج الكعبة إذا صار خَلَقًا يبيعه السلطان وينتفع به ويستعين به فى أمر الكعبة، لأن الولاية فيه للسلطان لا لغيره، وفى تتمة الفتاوى عن الإمام محمد رحمه الله فى ستر الكعبة يعطى منه إنسان، فإن كان شيئًا له ثمن لا يأخذه، وإن لم يكن له ثمن فلا بأس له[1].

قال الإمام نجم الدين الطرطوسى فى منظومته:

وما على الكعبة من لباس إنْ رَثَّ جـار بَيْعُـهُ للناس

ولا يجـوز أخذه بلا شرا للأغنيـــاء لا ولا للفقـرا

قال الإمام الفقيه أبو بكر الحَدَّادى فى السراج الوهاج: لا يجوز قطع شىء من كسوة الكعبة ولا نقلُه ولا بَيْعُه ولا شراؤه ولا وضعُه بين أوراق المصحف، ومن حمل شيئًا من ذلك فعَلَيْه رَدُّه ولا عبرة بما يتوهمه الناس أنهم يشترون ذلك من بنى شيبة فإنهم لا يملكونه، فقد روى عن ابن عبّاس وعائشة أنهما قالا: يبيع ذلك ويجعل ثمنه فى سبيل الله. انتهى.

وقد ورد فى الحديث الصحيح: «لولا حداثة قومك بكفر لأنفقت كنز الكعبة فى سبيل الله». وقال القرطبى من علماء المالكية رحمه الله: كنز الكعبة المال المجتمع مما يُهْدَى إليها بعد نفقة ما تحتاج الكعبة إليه وليس من كنز الكعبة ما تُحَلَّى به من الذهب والفضة، لأن حِلْيَتها حُبْسٌ عليها كحُصُرِها وقناديلها لا يجوز صَرْفُها لغيرها. انتهى.

فعلى قول القرطبى تكون كسوتها أيضًا حُبْسًا عليها كحصرها وقناديلها فلا يملكها أحد. انتهى.

وقال الزركشى من علماء الشافعية رحمه الله فى قواعده: قال ابن عَبْدَان: أمنع من بَيْع كسوة الكعبة وأوجب ردّ من حمل منها شيئًا.

وقال ابن الصلاح: هى إلى رأى الإمام، والذى يقتضيه القياس أن العادة استمرّت قديمًا بأنها تبدل كلّ سنة وتأخذ بنو شيبة تلك العتيقة فيتصرّفون فيها

(١) إعلام العلماء ص٦٣.

بالبيع وغيره وتقرُّهم الأئمة على ذلك فى كلّ عصر فلا تردد فى جوازه.

والذى يظهر لى أن كسوة الكعبة الشريفة إن كانت من قبل السلطان من بيت مال المسلمين فأمْرُها راجعٌ إليه، يُعْطيها لمن شاء من الشَّيْبيِّين أو غيرهم، وإن كانت من أوقاف السلاطين وغيرهم فأمرها راجع إلى شرط الواقف فيها، فهى لمن عينها له، وإن جُهِلَ شرط الواقف فيها عُمِلَ فيها بما جَرَت العادة السابقة فيها كما هو الحُكْم فى سائر الأوقاف. وكسوة الكعبة الشريفة الآن من أوقاف السلاطين ولم يُعْلم شرط الواقف فيها، وقد جرت عادة بنى شيبة أنهم يأخذون لأنفسهم الكسوة العتيقة بعد وصول الكسوة الجديدة فيُبْقون على عادتهم فيها، وللعلماء المتأخّرين رسائل فى حكم كسوة الكعبة لم يتيسّر لى الآن الوقوف على شىء منها[1].

* * *

(١) إعلام العلماء ص٦٤.